جامعة قطر

كليّة الشريعة والدراسات الإسلامية

الإصلاح الحضاري عند خير الدين التونسي

1890-1810

إعداد

حسام محمد عفيف الديرشوي

قُدّمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات

كليّة الشريعة والدراسات الإسلامية

للحصول على درجة الماجستير في

الأديان وحوار الحضارات

يونيو 2024م/ 1445هـ

2024©. حسام محمد عفيف الديرشوي. جميع الحقوق محفوظة.

لجنة المناقشة

استُعرضت الرسالة المقدّمة من الطالب/ة حسام محمد عفيف الديرشوي بتاريخ 9 مايو 2024م، وَوُفِق عليها كما هو آتٍ:

نحن أعضاء اللجنة المذكورة أدناه، وافقنا على قبول رسالة الطالب المذكور اسمه أعلاه . وحسب معلومات اللجنة فإن هذه الرسالة تتوافق مع متطلبات جامعة قطر، ونحن نوافق على أن تكون جزءًا من امتحان الطالب.

د.علي بن العجمي العشي

المشرف على الرسالة

د. أبو بكر إبراهيم

مناقشاً داخلياً

د. محمد عبد الحليم بيشي

مناقشاً داخلياً

د. يوسف العايب

مناقشاً خارجياً

تمّت الموافقة:

الدكتور إبراهيم عبد الله الأنصاري، عميد كلّيّة الشريعة والدراسات الإسلامية

المُلخَّص

حسام محمد عفيف الديرشوي، ماجستير في الأديان وحوار الحضارات:

يونيو 2024.

العنوان: الإصلاح الحضاري عند خير الدين التونسي

المشرف على الرسالة: د.علي بن العجمي العشي

عرضت في هذه الرسالة لتجربة الإصلاح الحضاري عند خير الدين التّونسي، مستعيناً في ذلك بالمنهج الوصفي التحليلي وذلك بعرض حياة خير الدين ومنجزاته الإصلاحية من الناحية الحضارية، مع التركيز على الإصلاحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

ومن نتائج البحث أن خير الدين رجل دولة، وصاحب مشروع إصلاحي سعى لإرساء النهضة والتحديث لتونس ونقل العلوم من أوروبا دون التعارض مع روح الشريعة الإسلامية.

وخُتم البحث بالتوصية بالعناية بفكره الإصلاحي ومدارسته، من خلال إدراجه ضمن مقررات الدراسة في المدارس والجامعات في قطر بما يتناسب وعصرنا الحالي.

- **كلمات مفتاحية:** خير الدين، إصلاح، سياسة، اقتصاد، حضارة، استبداد

Abstract

In this message, I presented an experiment of civilizational reform by Khair al-Din al-Tunisi, using the descriptive-analytical approach. This was done by presenting the life of Khair al-Din and his reform achievements from a civilizational perspective, with a focus on political, economic, and social reforms .

The research concluded that Khair al-Din was a statesman and the architect of a reform project aimed at establishing progress and modernization in Tunisia, while also transferring knowledge from Europe without conflicting with the spirit of Islamic law .

The research ended with a recommendation to pay attention to his reformist ideas and teachings by including them in the curricula of schools and universities in Qatar, in line with our current era.

Key words:

Khair al-Din, reform, politics, economy, civilization, tyranny

شكر وتقدير

رب لك الشكر والحمد على توفيقك لي للوصول إلى هذه الدرجة العلمية، فالحمد والشكر لك يارب العالمين.

واستهداء بقوله تعالى (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) أتوجه بخالص الشكر والثناء لأستاذي المشرف على رسالتي فضيلة **الأستاذ الدكتور علي بن العجمي العشي** والذي سعدت بإشرافه على رسالتي، فكان نعم المرشد والمعلم، وبذل جهوداً كبيرة في مراجعة رسالتي منذ إعداد خطتها وحتى اكتمال فصولها، فجزاه الله خير الجزاء ونفع به وبعلمه.

ثم أتقدم بخالص الشكر لكل أساتذتي وأخص بالذكر منهم **أ.د.عبد القادر بخوش وأ.د.عزالدين معميش وأ.د.محمد خليفة** أتم الله شفاءه **والدكتور يوسف بنلمهدي وأ.د.أحمد زايد وأ.د.حسن عبيد والدكتور مصطفى الستيتي** لما تلقيناه على أيديهم من الخير والنفع.

كما أتقدم بالشكر لصديقيّ العزيزين حمد ثابت ومحمد السيد آدم، والذين لم يقصرا معي سواء بالنصيحة أو بالتوجيه في مشواري الدراسي.

الإهداء

أهدي هذا البحث المتواضع إلى والدي العزيز محمد عفيف –أبو أسامة– شفاه الله وعافاه والذي شجعني ووقف معي وكان نعم السند بمشواري الدراسي

وإلى والدتي العزيزة إلهام – أم أسامة – شفاها الله وعافاها، هذه المرأة الصبورة على كل ألم في سبيل راحة أبنائها وتفوقهم فكانت نعم السند لنا

وإلى أخوتي وأخواتي أسامة وثناء وخالد ومفاز وآخر العنقود رفيقي في الدراسة وزميلي في العمل وعديلي محمد أمين

وإلى من وقفت معي وساندتني وتعبت معي في دراستي زوجتي ورفيقة عمري سلوى، وإلى ولدي خليل وأيمن

حسام الديرشوي – أبو خليل–

فهرس المحتويات

شكر وتقدير .....هـ

الإهداء .....و

المقدمة.....1

الفصل التمهيدي:.....12

عصر خير الدّين التّونسي وترجمته: 12

المبحث الأول: عصر خير الدّين التّونسي: 12

المبحث الثاني: ترجمة خير الدّين التّونسي: 16

الفصل الأول:.....28

الحضارة في فكر الوزير المصلح خير الدّين التّونسي: 28

المبحث الأول: مفهوم الحضارة ورؤية خير الدّين باشا في الأخذ عن حضارة أوروبا:.28

المبحث الثاني: ضرورة الخروج من التخلف والانحطاط الحضاري إلى نظام عصري مُشرق: 34

الفصل الثاني: الإصلاح الديني في مسيرة الوزير خير الدين التّونسي 37

المبحث الأول: موقف خير الدين باشا من الاجتهاد والتجديد 38

المبحث الثاني: إصلاح التعليم الديني.....44

المبحث الثالث: إصلاح التّنظيمات الاجتماعيّة:.....50

الفصل الثالث:.....56

الإصلاح السياسي:.....56

المبحث الأول: في إصلاح الحُكم: 56

المبحث الثاني: موقف خير الدين من نظام الحكم الاستبدادي: 65

المبحث الثالث: السياسة الشرعية في منظور خير الدين باشا:.....74

المبحث الرابع: الفكر السّياسي لخير الدين والتّنظيمات السّياسية: 78

الفصل الرابع:.....83

الإصلاح الاجتماعي: 83

المبحث الأول: التنظيمات الاقتصادية: 84

الخاتمة.....93

قائمة المصادر والمراجع 95

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسّلام وعلى رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد:

مما لا شك فيه أنّ كلّ دارس لتاريخ تونس لابدّ له أن يتطرق إلى موضوع الإصلاح في الدّولة، حيث شغل الإصلاح بال المفكرين والسّياسيين والفلاسفة قديماً وحديثاً، وخصوصاً عندما يتعلق الأمر بشؤون الأمّة الإسلامية، وما وصلت إليه من حال.

وفي خضم هذا الانحطاط الذي وصل إليه حال الأمّة، والمقارنة مع الغرب وما وصل إليه من تطوّر ونهضة وتقدم، ظهرت شخصية فذة تميّزت بمواقفها وأفكارها الإصلاحية.

أتحدث عن تجربة الإصلاح الحضاري عند خير الدين التّونسي أو كما يسمّى "أبو النّهضة التّونسية"، ومن أهم ما يدعو إليه خير الدين أن الأمة الإسلامية بشكل عام وتونس بشكل خاص إذا أرادت الخروج من حالة الانحطاط الذي وصلت إليه إلى حالة النهوض واللحاق بركب الحضارة الغربية تقدماً وتطوراً فإن ذلك يقتضي وجوباً أن لا نستنكف من الأخذ بما وصلت إليه تلك الحضارة في ميادين العلوم والصناعات، فليس كل ما يؤخذ منها يعدّ كفراً وحراماُ، ولابدّ للأمة الإسلاميةأن تقتبس من أوربا ما يوافقها لتنهض وتقوم وتتطور، وقد ألّف كتابه "أقوم المسالك إلى معرفة أحوال الممالك"، وضمّنه أفكاره الإصلاحيّة، كما عمل على إنشاء التّنظيمات التي هي عماد نهضة أيّ أمة، وعلى أساسها تنهض الأمة وتتطور على الأصعدة الدّينية والسّياسية والاقتصاديّة والاجتماعيّة.

1- أسباب اختيار الموضوع:

هناك أسباب كثيرة دعتني لاختيار هذا الموضوع بعضها ذاتيّ وبعضها موضوعي، ويمكن إجمالها في النّقاط الآتية:

الأسباب الذاتية وأهمها:

• الرّغبة في التعرف على خير الدّين التّونسي وأفكاره الإصلاحيّة باعتباره أحد أهم رموز الإصلاح في تونس.

• التعرف على التاريخ التّونسي من خلال خير الدّين التّونسي والحقبة التي عاشها فيها.

أما الأسباب الموضوعية فأهمها:

- أولاً: محاولة فهم التجربة الإصلاحية لخير الدين التونسي وتحليلها واستيعاب سياقها الحضاري.

- ثانياً: السعي إلى فهم تأثير خير الدّين التونسي وأفكاره الإصلاحية على الجانب السياسي والاقتصادي والاجتماعي في تونس بشكل خاص، وعصره عموماً.

- ثالثاً: أن سؤال النهضة والإصلاح اليوم ما زال يحتاج إلى تجميع التّجارب الإصلاحيّة في العصر الحديث وإعادة قراءتها والمراكمة عليها، لتلمس أمثل الطّرق للإصلاح الحضاري للأمّة.

2- إشكالية البحث:

في هذا العنصر أعرض للإشكاليات المركزيّة في هذا البحث، والتي يمكن أن أصوغها في الأسئلة الآتية:

- من هو خير الدّين باشا التّونسي، وما تأثير الحقبة التي عاش فيها خير الدين التونسي على تونس والعالم العربي والإسلامي؟

- ما الأفكار الإصلاحية التي طرحها خير الدين التّونسي للنهوض بالأمة؟ وما تأثيرها؟

- وكيف نظر خير التّونسي إلى الحضارة الإسلامية والحضارة الغربيّة؟

- ما هي معالم مشروع خير الدين الفكري في مواجهة الحضارة الغربيّة؟

- ما أوجه تأثير هذا المشروع على الجوانب الدينيّة والفكرية والسّياسية والاقتصادية والاجتماعية في تونس وفي الدّولة العثمانيّة في تلك المرحلة؟

3- أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في أنه يعرض حياة شخصيّة فذة نادت بالإصلاح للنّهوض بالأمة ومواجهة الأفكار الغربيّة التي بدأت بالتسرب إلى داخل الأمة وتركت أثرها فيها، وقد عملت هذه الشخصية جاهدة على طرح الأفكار الإصلاحيّة وتطبيقها من خلال كتابه "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك".

ولعل الجانب المهم في هذه الدّراسة يكمن في مدارسة المشروع الإصلاحي لخير الدين والوقوف على أهم نجاحاته وأهم الإخلالات التي وقع فيها، سعياً للاستفادة من تجربته الإصلاحية في تلمس دروب الإصلاح للأمّة في هذه اللحظة الفارقة من تاريخها.

4- أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى:

- التعرف على الحقبة التّاريخية التي عاشها خير الدّين باشا التونسي ومدى تأثيرها في مشروعه الإصلاحي.

- تحليل المشروع الإصلاحي لخير الدّين وفهمه ودراسة أثره في النهوض الحضاري للأمة.

5- حدود البحث:

- **الحدود الموضوعية:** تتناول الدراسة موضوع الفكر الإصلاحي لدى خير الدين التونسي من الناحية الحضارية وكلّ ما يتعلق به من مفاهيم خادمة للبحث.

6- منهج البحث:

وأما المنهج الذي اتبعته في بحثي فيعتمد على المنهج الوصفي والتّحليلي عند ترجمة حياة خير الدّين التّونسي وعصره، وعند مدارسة المشروع الحضاري لخير الدّين التونسي.

7- الدراسات السابقة:

- الدراسة الأولى: محمد القاضي، عبد الله صولة، الفكر الإصلاحي عند العرب في عصر النهضة، دار الجنوب،ط1، 1992، تونس.

وهو عبارة عن دروس ومحاضرات ألقيت خلال الثمانينات على طلبة قسم اللغة العربية بكلية الآداب بتونس، وجمعت هذه الدروس في هذا القرطاس القيم، وتم تقسيمه إلى أربعة أقسام أولها بوادر النهضة العربية في المشرق والمغرب، وما ساعدها من عوامل على تحقيق هذه النهضة مثل الترجمة والمدارس والطباعة والصحافة، وثانيها عن الجانب الثقافي من الإصلاح وبيان صورة أوروبا من خلال كتب الرحالة العرب في عصر النهضة، وآثار التيار العلماني على المفكرين العرب بين القبول الرفض، وأما القسم الثالث فكان عن النظام السياسي ومواقف المصلحين من خلال إصلاح النظام السياسي ومصير الخلافة الإسلامية وتيار القومية العربية واما رابع هذه الأقسام فكانت حول التفكير الاجتماعي في تلك الفترة ومواقف المفكرين العرب من مسألتي إصلاح التعليم وقضايا المرأة وتحريرها.

وقد اعتمد الكاتبان على المنهج الاستقرائي من خلال طرحهم لهذه المواضيع في عصر النهضة، والدخول في تفاصيلها ونقدها.

تتقاطع هذه الدراسة مع موضوع الباحث في عدة أجزاء أذكرها، النظرة العربية للغرب والإصلاح السياسي والاجتماعي والتعليم، حيث ركز الباحثان على عصر النهضة وما كتب عن هذه المواضيع في تلك الحقبة، إلا أنه في دراستي تم التركيز على هذه الجوانب من خلال الإصلاح الحضاري عند خير الدين التونسي، وبيان إنجازاته في هذه الميادين ونجاحه وفشله في تجربته الإصلاحية.

– الدراسة الثانية: كتاب جيتين: أتيلا، **خير الدين التونسي من خلال وثائق تونسية وتركية نادرة**، ترجمة: الدكتور مصطفى الستيتي، (تونس: وزارة الثقافة والمحافظة على التراث، ط1، 2005م).

كتاب مهم في سرد سيرة خير الدين باشا ومشواره الإصلاحي في تونس، فقد أورد الكاتب آراء خير الدين باشا في إصلاح الأوضاع في تونس، بشكل خاص والدولة العثمانية بشكل عام، فقد أحيا خير الدين النظام القضائي والإصلاحات الإدارية والمالية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وآرائه العامة في كتابه أقوم المسالك والتي تهدف إلى تطوير العالم الإسلامي بشكل عام.

تتقاطع مواضيع هذا الكتاب مع دراسة الباحث من خلال عدة مواضيع منها ترجمة لحياة خير الدين باشا، والتعريف بكتابه "أقوم المسالك" وتحليله، ومايتعلق بخدماته في تونس منذ شغله لمناصب عليا في الدولة، وما قام بها من إصلاحات على مستوى الدولة وما حققه وفشل في تحقيقه.

إلا أن بحثي ركز على الجانب الحضاري من إصلاحات خير الدين باشا ومفهوم الحضارة لديه.

– الدراسة الثالثة: **خير الدين باشا التونسي وتجربته الإصلاحية في تونس (1822-1877)**

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر في التاريخ، تخصص تاريخ المغرب العربي المعاصر، إعداد الطالبة سارة جراي، جامعة العربي بن مهيدي، أم البواقي، الجزائر، 2018-2019م.

حيث يتمحور هذه البحث حول موضوع من موضوعات التراجم في تاريخ تونس الحديث والمعاصر، ألا وهي ترجمة خير الدين باشا التونسي رائد الإصلاح في تلك الفترة، والتي تكالبت على الأمة القوى الأوربية وقتها،

وقد اختارت الباحثة موضوع البحث:

– رغبة منها في التعرف على خير الدين التونسي ودوره الفعال في الحركة الإصلاحية السياسية التونسية.

– والاطلاع على الفترة التي سبقت فرض الحماية الفرنسية على تونس، ومحاولات رجال الإصلاح التونسيين وعلى رأسهم خير الدين لإصلاح أحوال البلاد.

– تسليط الضوء على أهم الإصلاحات التي قام بها خير الدين أثناء توليه أهم المناصب في البلاط التونسي.

وأكثر ما لفت انتباهي في هذا البحث أنه من موضوعات التراجم حيث إنّ الباحثة اعتمدت في بحثها على ترجمة خير الدين التونسي والحديث عن تجربته الإصلاحّية من خلال كتابه "أقوم المسالك".

والاختلاف بين هذا البحث وبحثي أن البحث سالف الذّكر اعتمد على المنهج التاريخي الوصفي، وأما بحثي فقد اعتمد على الاستنتاج وتحليل الرؤية الحضارية عند خير التونسي من خلال كتابه "أقوم المسالك في معرفة الممالك".

الدراسة الرابعة: **الفكر الإصلاحي لخير الدين التونسي من خلال كتابه "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك"**، وهي مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في التاريخ المغربي العربي الحديث والمعاصر، إعداد الطالبة سهام شابي. جامعة الوادي، الجزائر 2013–2014م.

ويشترك بحثي مع هذا البحث من خلال استخدام المنهج التحليلي والاستنتاجي، ولكن سأقوم باستنتاج وتحليل الرؤية الحضارية لخير التونسي من خلال كتابه "أقوم المسالك في معرفة الممالك".

8- هيكل البحث:

الفصل التمهيدي: عصر خير الدين التونسي وترجمته:

المبحث الأول: عصر خير الدّين التّونسي:

المطلب الأول: الحالة الدّينية والفكرية.

المطلب الثاني: الحالة السّياسية.

المطلب الثالث: الحالة الاجتماعيّة.

المبحث الثاني: ترجمة خير الدين التونسي:

المطلب الأول: اسمه ونسبه.

المطلب الثاني: نشأته.

المطلب الثالث: مصنفاته:

أولاً: أقوم المسالك.

ثانياً: المذكرات.

ثالثاً: الرسائل.

المطلب الرابع: وفاة خير الدين باشا التّونسي وأقوال العلماء فيه.

الفصل الأول :الحضارة في فكر الوزير المصلح خير الدين التّونسي:

المبحث الأول: مفهوم الحضارة ورؤية خير الدين باشا في الأخذ عن حضارة أوروبا:

المطلب الأول: مفهوم الحضارة.

المطلب الثاني: رؤية خير الدين باشا بلزوم الأخذ عن أوروبا.

المبحث الثاني: ضرورة الخروج من التخلف والانحطاط الحضاري إلى نظام عصري مشرق.

الفصل الثاني: الإصلاح الديني في مسيرة الوزير خير الدين التونسي

المبحث الأول: موقف خير الدّين باشا من الاجتهاد والتّجديد:

المطلب الأول: الدعوى إلى التجديد والاجتهاد في الشّريعة الإسلاميّة.

المطلب الثاني: موقف خير الدين الشرعي من أوضاع الأجانب في البلاد الإسلاميّة.

المبحث الثاني: إصلاح التعليم الديني.

المبحث الثالث: إصلاح التنظيمات الاجتماعيّة:

المطلب الأول: إصلاح القضاء.

المطلب الثاني: في إصلاحه للأوقاف.

الفصل الثالث: الإصلاح السّياسي:

المبحث الأول: في إصلاح الحكم:

المطلب الأول: مبدأ الشّورى.

المطلب الثاني: تقييد نظام الحُكم.

المطلب الثالث: مبدأ الديمقراطية.

المبحث الثاني: موقف خير الدين من نظام الحكم الاستبدادي:

المطلب الأول: مفهوم الاستبداد.

المطلب الثاني: موقف خير الدين باشا من نظام الاستبداد بالحكم.

المبحث الثالث: السّياسة الشّرعية في منظور خير الدين باشا:

المطلب الأول: وجوب الاتّحاد بين رجال الدولة والعلماء.

المطلب الثاني: تقسيم الموظفين في الممالك الإسلامية.

المبحث الرابع: الفكر السياسي لخير لدين والتنظيمات السياسيّة:

المطلب الأول: موقفه من الحرية والعدل.

المطلب الثاني: موقفه من الاقتباس.

المطلب الثالث: في المجالس والوزارات.

الفصل الرابع: الإصلاح الاجتماعي:

المبحث الأول: التّنظيمات الاقتصادية:

المطلب الأول: الإصلاح الزّراعي.

المطلب الثاني: الإصلاح الصّناعي.

الخاتمة.

قائمة المصادر والمراجع.

الفصل التمهيدي:

عصر خير الدّين التّونسي وترجمته:

إن التاريخ الإسلامي منذ بزوغه لم يخلُ من المجدّدين الذين أحيوا فيه روح التّجديد، ولا يخفى بأن كل حضارة تتعرض للضعف فيأتي هؤلاء المجددون ويحيونها ويدفعوا بعجلة التّطور نحو التقدم والنّهضة [1].

وسنتحدث في موضوعنا عن رائد من رواد الإصلاح، ومن الذين تركوا بصمتهم في التقدم الحضاري، وسنحاول تبسيط الأمر في بحثنا وإظهار هذه الشّخصية وما تركته من إرث إصلاحي حضاري في سبيل تقدم الأمة وتطورها.

المبحث الأول: عصر خير الدّين التّونسي:

تحت هذا العنوان تندرج مجموعة من الأفكار التي تكاد ترسم بوضوح الجو العام الذي عاش ونشأ فيه خير الدين التّونسي، ومن خلال هذه الأفكار يمكننا توضيح ذلك ضمن ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الحالة الدّينية والفكريّة:

تعرضت البلاد العربيّة والإسلامية للتخلّف والتأخّر على الصعيد الديني والفكري، وشهدت تونس هذه الحالة من التدهور والتّخلف كونها جزءاً من هذه الأمصار التي تعرضت لهذه الموجة[2].

---

[1] البيومي، محمد رجب: **النّهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين**، (دمشق:، دار القلم، بيروت: الدار الشامية، ط1، 1995م)، ج1، ص9.

[2] المنياوي، "**الإصلاح السياسي لدى خير الدّين التونسي**"، ص 51.

المطلب الثاني: الحالة السّياسية:

عندما وصلت الدولة العثمانية إلى مرحلة الهرم والشيخوخة بدأت الدول التابعة لها أيضاً تتعرض للفوضى والفساد، في حين بدأت أوروبا بالنهضة الحضارية والتقدم والتطور وخصوصاً في الجانب السياسي[3].

من وجهة نظري إن هذه الدول التابعة للدولة العثمانية، سعت إلى الانفصال عنها والابتعاد عن تبعيتها لها، بسبب ما وصلت إليه حالها وتمت محاربتها من كافة الأطراف، فبدأت الفوضى فيها وحلّ الفساد في مختلف أوصالها دونما مراقبة أو محاسبة، فتراجعت وانشغلت بأوضاعها الداخلية وتركت اللحاق بركب الحضارة.

وبدأت الأوضاع الداخلية في تونس بالتمزق بعد وفاة الباي حمودة باشا[4] والذي عرف عنه منهج الشورى للطبقة الحاكمة ومسؤولي الدولة، وبعد رحيله بدأ أفراد الأسرة الحسينية[5] بالتنازع على السلطة والحكم، مما نتج عنه فوضى سياسية عارمة وفساد إداري في البلاد[6].

---

[3] أبو حمدان، **خير الدين التونسي أبو النهضة التونسية**، ص19.

[4] هو أكبر أبناء الباي علي بن الباي حسين، ولد سنة 1759م، ولما بلغ السابعة عشر تنازل له والده عن الحكم، وظل حاكماً على تونس حتى وفاته سنة 1814م. (إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، أحمد بن أبي الضياف، تحقيق لجنة من وزارة الشؤون الثقافية، تنفيذ الدار العربية للكتاب، مج4، ج8، ص11).

[5] مؤسس هذه العائلة هو حسين باي الأكبر، وفد إلى تونس وانخرط في الجند ثم ترقى في المناصب، إلى أن تولى الحكم وجعله وراثية بين أبناءه الأكبر فالأكبر، وبهمة أفراد هذه الأسرة انتظمت أمور الإيالة التونسية، وشيدت المدارس ووضعت القوانين.. إلخ. (خلاصة تاريخ تونس، حسن حسني عبد الوهاب، دار الكتب العربية الشرقية، تونس، ط3، ص149).

عاشت تونس حالة خطيرة من الفساد السياسي، في الفترة التي وُجد فيها خير الدين باشا، كما أن العلاقات كانت متوترة بين القبائل والعشائر داخل تونس، وقد أثر التشتت السّياسي والتنازع على حالة البلاد وأضرّ بها ودفعها إلى حافة الانهيار، وهو ما سنوضحه لاحقاً من جهود خير الدين في إصلاحه للميدان السياسي وغيره.

وقد كانت الدّول الغربية وقتها تترقب وتنتظر الفرصة المناسبة للسيطرة على البلاد التونسية والتي كانت تابعة للدولة العثمانية. وكانت تونس من بين أوائل الدول التي كانت فرنسا تتحيّن الفرصة للسيطرة عليها وذلك لقربها من أوروبا.

المطلب الثالث: الحالة الاجتماعية:

اتسمت الحياة الاجتماعيّة في تونس بتدهور الأوضاع السياسية وانتشار الفساد الإداري فيها، حيث أرهق النّظام السّياسي الشّعب بكثرة الضرائب المفروضة عليه، بالإضافة إلى ما كان يعانيه الشعب من الفقر والخصاصة [7].

وقد سيطر التجار الأوربّيون على الحركة التّجارية في تونس، فلا يمكن البيع أو الشراء إلا بعد الرجوع إليهم وأخذ موافقتهم، مما قيد التجار التونسيين، فهم لا يملكون حرية التصرف فيما تنتجه بلادهم. فقد حدد التّجار الأوربّيون الأسعار حسب أهوائهم وما يخدم مطامعهم، وكان اليهود يشاركونهم

---

[6] شيخ: ياسين؛ وبو غرارة: محمد الأمين، **خير الدين التونسي حياته وأطروحاته الإصلاحية**، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر الأكاديمي، تخصص تاريخ الوطن العربي المعاصر، (الجزائر: جامعة محمد بوضياف، المسيلة، 2020-2021م)، ص 8-9 وما بعدهما".

[7] الشريف: محمد الهادي، **تاريخ تونس- من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال**، تعريب: محمد الشاوش-محمد عجينة، (تونس: دار سراس للنشر، ط3، 1993م)، ص 98.

ذلك، ما أدى إلى تضخم الأسعار أمام فقر الشعب وقلة ما في أيديهم والذين لم تعد للكثير منهم حرف أو أي عمل يقومون به، بالإضافة إلى الضرائب التي أثقل بها البايات كاهل الشعب المرهق أصلاً[8].

كل هذه الأحداث التي مرت على تونس أدت إلى تعقد الأحوال والأوضاع الاجتماعيّة، وما زاد صعوبتها حصول المجاعة في تونس، أو ما سمي بعام بُوبَرّاك، ويعني عند التونسيين العناء والمشقة، وقد انعدمت لدى التونسيين وسائل العيش والعمل بسبب تضييق البايات عليهم وسلبهم كلّ أسباب الرزق، واستخدام كل وسائل القمع والتعذيب [9].

وتزامنت مع هذه المجاعة انتشار بعض الأوبئة مثل الكوليرا والتي راح ضحيتها عدد كبير من التّونسيين، وبسبب الضغط الكبير على هؤلاء المستضعفين وتردي الأوضاع في تونس اندلعت ثورة كبيرة بقيادة علي بن غذاهم – وهي شخصية قيادية من قبيلة ماجر في منطقة الجنوب التونسي، قادت حركة تمردية ضد الحكومة بسبب النظام الجبائي التعسفي سنة 1864م– ووقفت في وجه الباي. وطالبت بتخفيض الضرائب وإلغاء ضريبة العشر والمكس خارج الأسواق، وإعادة ضريبة النخيل والزيتون إلى ماكانت عليه كما عينه الباي أحمد، وطلبوا إغلاق مكاتب الجباية، وانتشرت هذه الثورة وقويت شوكتها، وبالمقابل كان الباي ضعيفاً ولا يملك أدواة لمقاومة هذا الحراك الشعبي، إلى أن قام بتجهيز جيش للقضاء على الثورة، وبذلك فشلت ثورة بن غذاهم بسبب عدم توحد الحركة ولم تكن منظمة وإن المعارك أنهكت الثوار وتناقض القبائل وعدم ثباتها على موقف واحد[10].

---

[8] المرجع السابق.

[9] عبد السلام، **مواقف اصلاحية في تونس قبل الحماية**، ص 19–20. "بتصرف".

[10] المحجوب، آمال محمد، "**ثورة علي بن غذاهم**"، مجلة الشهيد، ع33 (المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية، 2012م)، ص 148، دار المنظومة، منقول بتصرف.

كان لتردي الأوضاع السياسية والاجتماعية دور في تأخر المجتمع وكما ذكرت سابقاً أن الانشغال بالأوضاع الداخلية كان سبباً في تأخر المجتمعات في مواكبة متطلبات العصر، لذلك اجتمعت تلك الأسباب السابقة في تونس والتي أدت إلى إنهاك الشعب التونسي وعدم اهتمامه بالتطور والتقدم إلا من تفكيره في وضعه الحالي وما وصلت إليه من صعوبة في المعيشة وتأمين لقمة العيش.

المبحث الثاني: ترجمة خير الدّين التّونسي:

المطلب الأول: اسمه ونسبه:

ولد خير الدّين التونسي أو خير الدين باشا بين عامي: (1810 – 1827م)، في إحدى القرى الصّغيرة في البلاد الشركسية بالشمال الغربي من جبال القوقاز، من أسرة شركسيّة عرفت باسم (أباظة)، وقد تم أسره خلال معركة بين العثمانيّين والرّوس فتم أخذه وبيعه في سوق العبيد لأحد أشراف الترك وهو نقيب الأشراف ويدعى تحسين بك القبرصي قاضي العسكر ورئيس قضاة الجيش، وقد اهتم تحسين بك بخير الدين ورباه تربية خاصة واعتنى به كثيراً، وأخذه إلى بيته ليصبح صديق الطّفولة لابنه، وزميله في التّربية وتحصيل العلم, وبعد وفاة ابن تحسين بك لم يستطع رؤية خير الدّين أمام عينه حيث كان يذكره بولده، ولم يعد بحاجة إلى بقائه لديه، وكان خير الدّين قد وصل من العمر إلى السّابعة عشر[11].

[11] محفوظ: محمد، **تراجم المؤلفين التونسيين**، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 1982م) ج2، ص 271.

وقام تحسين بك ببيعه لأحد الأشخاص، قيل إنه كان مبعوث الباي المشير أحمد الأول، وذلك لتعزيز صفوف المماليك الذين يخدمون في سرايا الجيش[12]، ووصل إلى قصر حاكم تونس وقتها الباي أحمد باشا سنة 1837م، وليحمل اسمه وينال الحظوة لديه[13].

نشأته:

بعد وصول خير الدين إلى تونس ودخوله قصر الباي أحمد باشا، أشرف الباي أحمد على تربيته وتهذيبه وتأديبه، وتعليمه المبادئ الدينية وترسيخ العقيدة والإيمان، وقد اهتم خير الدّين بالعلم الشّرعي واكتساب العلوم والمعرفة والمطالعة والتعمّق في قراءة أخبار السّابقين وتجاربهم، وكان من أحرص النّاس على تعاليم الدين الحنيف ومخالطة العلماء والفقهاء[14].

وقد كان المماليك في ذلك الوقت معروفين بقوتهم وذكائهم، وكان يُعتمد عليهم في الجيش وفي الأمور العسكريّة. لما كانت الغاية من قدوم خير الدّين إلى تونس لتعزيز صفوف المماليك، فقد حرص الباي أحمد باشا على العناية به ورعايته وتربيته تربيةً دينيّة وعصريّة، وحَرص خير الدين على تعلم اللّغة العربية والتّركية إلى جانب الفرنسية والفارسية. فكانت هذه الخطوة التي كان عليها غالب العلماء والمثقفين وقتها، وتلقى خير الدين تعليمه في المدارس الحربيّة الخاصة بذلك، واستفاد من خبرات

---

[12] بلمعطي: عبد اللطيف، "نخبوية الإصلاح المغاربي زمن القرن التاسع خير الدين باشا وأحمد النصري أنموذجاً"، **مجلة مدارات تاريخية**، ع1، مركز المدار المعرفي للأبحاث والدراسات، 2019م، ص 269.

[13] زين الدين: إسماعيل محمد، "الآخر نموذج مصري تونسي الطهطاوي وخير الدين"، **مجلة المؤرخ المصري**، جامعة القاهرة – كلية الآداب – قسم التاريخ، العدد 38، سنة النشر 2011م، ص 258.

[14] المنياوي: ثناء عبد الرشيد محمد، "الإصلاح السياسي لدى خير الدين التونسي"، **مجلة كلية الآداب**، جامعة القاهرة، مج 71، ج4، 2011م، ص 51.

المدرسين الفرنسيّين فيما يتعلق بفنون الحرب الحديثة، وما زال خير الدّين يترقى في المناصب بفضل ذكائه وحنكته وسرعة بديهته إلى أن أصبح وزيراً للحربية والمالية[15].

وقد نال خير الدين المكانة المميزة عند الباي أحمد باشا، ونال الثّقة حتّى ليكون رفيقه في رحلته إلى فرنسا مع المؤرخ أحمد بن أبي الضياف [16]، وقد استفاد خير الدّين من هذه الرّحلة من حيث الاطلاع المباشر على الحضارة الأوروبية وملاحظة الفرق الشّاسع بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط الشمالية والجنوبيّة، وكان الغرض من هذه الزيارة توطيد العلاقات السّياسية والتّجارية بين تونس وفرنسا[17].

واستفاد خير الدين كثيراً من هذه الرّحلة، فوقف عن قرب على العالم الغربي وما فيه من تطور، وتعرف أيضاً على أسسه الحضارية وما يتعلق بالنّظام السّياسي والمؤسسات الدستورية والتّنظيم الإداري المحكم، وعاد إلى فرنسا بعد هذه الرّحلة مرة أخرى، السبب الرئيس لزيارة خير الدين التونسي المرة الثانية ومكوثه ثلاث سنوات ليس سبباً معرفيّاً، إنما كان لمتابعة قضية ملتزم الضرائب السابق

---

[15] بلمعطي، "نخبوية الإصلاح المغاربي زمن القرن الناسع خير الدين باشا وأحمد النصري أنموذجاً"، ص 270.

[16] هو أحمد بن أبي الضياف، ولد سنة 1804م، تعلم القرآن الكريم وبعض المبادئ الإسلامية الأساسية وهو صغير السن، وفي سنة 1829م عُين كاتباً لدى الأمير حسين باي الثاني، وأدخل تعديلات على مراسلات الباي سواء من خلال الشكل أو اللغة، وبدل المراسلات التي كانت باللغة التركية إلى اللغة العربية، ومن أهم مصنفاته كتاب "إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان"، توفي سنة 1874م. (أعلام تونسيون، الصادق الزمرلي، تقديم وتعريب حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986، ط1، ص 71).

[17] المرجع السابق.

محمود بن عياد[18] ومحاولة استرجاع الأموال التي نهبها من خزانة الدولة التونسيّة .وقد استغل فرصة وجوده في باريس لمزيد توسيع معارفه وتوثيق العلاقات مع المفكرين ورجال السّياسة [19].

مصنفات خير الدين التونسي:

يعد خير الدّين التّونسي من الرجال المبدعين والذين أسهموا في الإصلاح، وهيأ الأرضية المناسبة لقيام حضارة جديدة في تونس، تحاكي الحضارة الأوروبّية في تقدمها وتطورها، أو تسير على خطاها لتكون في مصاف تلك الدّول المتحضرة.

ولقد كانت لهذه الشخصية الفذة مجموعة من الكتابات والتي تشرح نظرته الحضارية في مجال إصلاح الدولة وتقدمها، وألحق بها مجموعة من المذكرات الخاصة والعامة، كما أنّ لديه مجموعة من الرّسائل بينه وبين أعوانه ومساعديه.

أولاً: كتابه أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك:

ألّف خير الدّين كتابه هذا في الفترة التي اعتزل فيها الوظائف في الدولة، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حيث صدر الكتاب حوالي سنة 1867م وطبع سنة 1868م[20]، وقد ضمّنه

---

[18] ولد في جربة في تونس حوالي سنة 1810م، – وهو رجل أعمال تونسي وقد عمل لفائدة دولة البايات الحسينيين وتولى خطة قابض عام للدولة التونسية بما يساوي رتبة وزير– وفي سنة 1852 انتقل بن عياد إلى باريس ثم انتقل منها إلى الأستانة وأقام مشاريع تجارية وربط علاقات مع أصحاب النفوذ وساهم في إنشاء البنك القومي التركي وبعث مشاريع صناعية وتجارية هناك. ودفن في إحدى المقابر الاسلامية بالأستانة في فيفري 1880. (بو علي، لطفي، دور أعوان المخزن في إجهاض تجربة التحديث العسكري في تونس محمود بن عياد مثالا تطبيقياً، المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية، مركز الدراسات والابحاث الاقتصادية والاجتماعية، 2019م، س53، ع145، مجلة مُحكّمة، ص 62، من دار المنظومة).

[19] المرجع السابق.

[20] المصدر السابق، ص 56.

خلاصة معارفه وخبرته حول كيفية نشوء الممالك وزوالها، وأسباب ازدهارها ورقيها ونهضتها الحضارية وتطورها وكيفية سقوطها وانحدارها وانحطاطها[21]، وقد نظم المؤلف كتابه على خطى ابن خلدون وانتهج منهجه بشكل عام من حيث ترابط العلاقة بين الفساد والعمران وبين الظلم والظالمين من أولي الأمر ورجال السياسة وغيرهم.

وقسّم خير الدين كتابه إلى قسمين أساسيين:

القسم الأول: مقدمة الكتاب وقد تكلم فيها عن واقع البلاد الإسلامية وما أصابها من تخلف وتراجع عن باقي الأمم، وضمّن هذه المقدمة رؤيته الإصلاحية في مختلف المجالات، محتذياً بابن خلدون في تحليل أنظمة الحكم وآليات الاقتصاد، وحللها ووصفها بدقة تامة.

وأما القسم الثاني من الكتاب فخصه بالحديث عن الدول الأوروبية وواقعها، وكيف استطاعت تلك البلاد أن تتطور وتتقدم على كافة الأصعدة.

أراد خير الدّين من كتابه هذا الاستفادة من التجربة الأوروبية، واستخلاص كل ما يؤدي إلى تقدم الأمة وإصلاحها، وانتقاء ما يناسب ضرورات الإصلاح والتطوير والمضي بالبلاد الإسلامية إلى التّطوير الحضاري والخروج من الجهل والتخلّف والتأخر.

وقد سافر خير الدين وتنقل في الدول الأوروبية وقام برحلات دبلوماسية بحكم مكانته السياسية مثل بريطانيا وإيطاليا وفرنسا وغيرها، والتقى فيها بكبار رجال السياسة والمفكّرين وحاورهم للنّهوض بالدّول الإسلامية وتقدمها وتطورها، ويقال إنه تأثر بمقولة سمعها من بعض أعيان أوروبا مفادها: "إن التمدن الأوروبي تدفق سيله في الأرض فلا يعارضه شيء إلا استأصله قوة تياره المتتابع فيخشى على

---

[21] أبو حمدان، **خير الدين التونسي أبو النهضة التونسية**، ص 16.

الممالك المجاورة لأوربا من ذلك التيار إلا حذوا حذوه وجروا مجراه في التنظيمات الدنيوية فيمكن نجاتهم من الغرق"[22] وكان خير الدين يحضر جلسات المحاكمة التي كانت تعقد في موضوع الدّيون التّونسية المتأخرة عن السداد، وكانت أفكاره الإصلاحية سابقة عن موضوع التداين الذي وقعت فيه تونس، فقد كان مؤيداً قوياً لموضوع الدستور عام 1861م، بينما استفحل موضوع التداين بعد ثورة علي بن غذاهم سنة 1864م .

وقد كشف خير الدّين عن منهجه الاقتصادي في كتابه بعبارته والتي قال فيها:" والغرض من ذكر الوسائل التي أوصلت الممالك الأوروباوية إلى ما هي عليه من المنعة والسّلطة الدنيوية، أن نتخير منها ما يكون بحالنا لائقًا، ولنصوص شريعتنا مساعدًا"[23]. وهي ما أراده خير الدين في إصلاحه لتونس والدّول الإسلامية الخاضعة للدّولة العثمانيّة.

وقد ضمن كتابه أفكاره الإصلاحية ومدى عمقها ودقة أسلوبه وتم ترجمة الكتاب إلى اللّغات الفرنسية والانجليزية والتّركية.

وأخيراً فإن كتاب أقوم المسالك يعدُّ في زمرة الكتب التي ساهمت في الإصلاح الحضاري والنهضة والدعوة إلى الاجتهاد والتجديد، وهو كغيره من الكتب التي ساهمت في مشروع النهضة ككتاب (تلخيص الإبريز في تخليص باريز) لرفاعة الطهطاوي[24] ، وقد اكتفى الطهطاوي بتتبع الأثر

---

[22] التونسي، **أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**، تقديم: محمد الحداد، ص74.

[23] التونسي، **أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**، تقديم: محمد الحداد، ص6.

[24] "رفاعه رافع الطهطاوي من مدينة طهطا، محافظة سوهاج ، 15أكتوبر – 1801 – 27 يوليه 1873مترجم مصري كبير من عصر محمد على باشا ومن رموز النهضة المصرية الحديثة و التنوير المصري. تخرج من الازهر ثم أرسل إلى فرنسا سنة (1826) ليكون إمام لأول بعثه تعليميه مصرية. تعلم الفرنسية واطلع على الثقافة الأوروبية المتحضرة والتقدم العلمي والاجتماعي في فرنسا. من مؤلفاته: "تخليص الابريز فى تلخيص باريز "

الديني في المسألة الحضارية، أما خير الدين (لكونه رجل دولة) فقد اهتم بجانب ذلك بالاعتبارات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والإدارية التي قدر أنها مهمة في المواجهة مع المدنية الأوروبية. وكتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) لعبد الرحمن الكواكبي [25]، والذي اكتفى بتتبع نفسية الاستبداد وبواعثها، في حين اهتم خير الدين بجانب ذلك بأسباب التقدم الأوروبي والأخذ بعلوم العصر والعناية بفكر ابن خلدون.

ثانياً: كتاب المذكرات:

تعد المذكرات من المراجع التاريخية التي لا تقبل التحريف غالباً، حيث تقدم نقلاً مباشراً للأحداث التّاريخية، وتقدمها من وجهة نظر ذاتية، ونلخص فيما يأتي مذكرات خير الدين التّونسي، حيث نقل فيها أهم الأحداث التي جرت في الفترة التي عاشها في تونس والمناصب التي تقلدها إلى أن وصل إلى منصب الصدر الأعظم في الدولة العثمانيّة إلى أن قام بمساعدة كاتبه ادولف ياكوت والذي أملاها عليه خير الدين وكتبها، والمرجح بأنها حسب بعض الروايات بين سنة 1885 – 1888م، إلا

والذي أظهر فيه انبهاره الكبير بالحضارة الفرنساوية " .مباهج الألباب المصرية في مناهج الآداب العصرية ." {الزركلي، خير الدين: **الأعلام**، (بيروت، دار العلم للملايين، ج3، ط7، 1986م) ص29.}

[25] "عبد الرحمن بن أحمد بن مسعود الكواكبي (١٢٦٥ – ١٣٢٠ هـ – ١٨٤٩ – ١٩٠٢ م)، ولد وتعلم في حلب ، وأنشأ فيها جريدة ، الشهباء ، فأقفلتها الحكومة ، وجريدة ، الاعتدال ، فعطلت ، وأسندت إليه مناصب عديدة . ثم حنق عليه أعداء الإصلاح، فسعوا به ، فسجن وخسر جميع ماله ، فرحل إلى مصر . وساح سياحتين عظيمتين إلى بلاد العرب وشرقي إفريقية وبعض بلاد الهند. واستقر في القاهرة إلى أن توفي . له من الكتب أم القرى، و طبائع الاستبداد". {الزركلي، خير الدين: الأعلام، (بيروت، دار العلم للملايين، ج3، ط7، 1986م) ص298.}

أنها نشرت لأول مرة بين عامي 1943 – 1940م، ونشرت مرة أخرى سنة 1971م. تحت عنوان:" إلى أطفالي، حياتي الخاصة والسّياسية" وهي عبارة عن ترجمة له[26].

وقسمها إلى بابين، باب عن حياته ونشأته وباب بعنوان "خطتي" وهي عبارة عن توجيهات سياسية وجهها للدولة العثمانية، تتضمن برنامجه الإصلاحي للدولة العثمانية.[27]

بقيت مذكرات خير الدين باشا غير معروفة لدى المطابع العربية ولا حتى عند المثقفين العرب من الإصلاحيين وغيرهم حيث كانت مكتوبة باللغة الفرنسية، وكذلك نجد أن هذه المذكرات ظلت مجهولة من قبل الكثير من المهتمين بالتاريخ التونسي ابتداءً والتاريخ العثماني عموماً، وكان للأستاذ محمد الصالح مزالي دور قيم في إظهار جانب من تلك المذكرات، حيث تمكن من الحصول على قسم منها عن طريق ابن خير الدين واسمه الطاهر خير الدين، كما حصل على عدد من رسائله، قام بعد ذلك الأستاذ مزالي بنشر طائفة من الوثائق والنصوص الفرنسية تحت إشراف جون بينيون في المجلة التّونسية بين الأعوام(1934_ 1940) م[28].

ويرى الباحث أن مذكرات خير الدين إضافة قيّمة على الحركة التاريخية، وما تحمله من أهمية كبيرة في مسألة الإصلاح والتجديد، وهي من المصادر الهامة في توثيق حياته والتجارب السياسية والاقتصادية التي خاضها، ومساهمته في الحفاظ على التراث الثقافي ونشر الوعي في المجتمع، حيث حاول من خلال ذلك أن يرسم طريقاً واضح المعالم ليتخذه رواد الحضارة وكل من يسعى للنهوض

---

[26] جيتين: أتيلا، **خير الدين التونسي من خلال وثائق تونسية وتركية نادرة**، ترجمة: الدكتور مصطفى الستيتي، (تونس: وزارة الثقافة والمحافظة على التراث، ط1، 2005م)، ص 234.

[27] المصدر السابق.

[28] التونسي: خير الدين، **مذكرات خير الدين التونسي**، تحقيق وتعريب: محمد العربي السنوسي، (تونس: وزارة الثقافة والمحافظة على التراث، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون–بيت الحكمة، 2008م)، ص 15.

بمجتمعه وبلده من حالة التأخر إلى حالة التقدم والتطور؛ فكان يذكر التجارب الشخصية واكتسابه خبرات الغرب بحكم إقامته فيها لعدة سنوات، وكيف استفاد من تطورهم وتقدمهم من خلال الاختلاط معهم والحوار مع نخبة مثقفيهم ومن رواد نهضتهم، وجمع هذه الأفكار وما أخذه منهم، ليظهر مفهوماً جديداً للحضارة مزج فيها بين مفهوم الحضارة عند الأوروبيين ومفهومها عند المسلمين، ليعطينا مفهوم الحضارة من وجهة نظر إسلامية أخذت أحسن ما لدى الغرب لبعث روح النهضة الحضارية في الأمة الإسلامية كما كانت في سابق عهدها.

ثالثا: الرسائل:

كان لخير الدين باشا مجموعة من المراسلات قبل ترقيه في المناصب في الدولة، وخلال الفترة التي قضاها في العمل السّياسي، وكانت هذه المراسلات على شكل ردود موجّهة لخصومه سواء في الميدان الإقتصادي أو السّياسي، مثل مراسلاته للرد على وزير المالية وقتها مصطفى خزندار[29] صهر الباي ونسيب خير الدين باشا، وقد ساءت العلاقة بينهما فيما بعد، وأيضاً كانت بعض مراسلاته لأعوانه وأنصاره من أصحاب الفكر الإصلاحي والنهضوي، لأخذ الحيطة والحذر من كافة الأخطار والدسائس التي كانت تحدق بسياساتهم وخططهم الإصلاحية، ومراسلاته مع صديقه المقرب الجنرال حسين، وكانت هذه المراسلات توضيحاً من خير الدين باشا لأفعال مصطفى خزندار والذي ضيق على خير الدين باشا وحاربه ووقف في وجه مشروعه الإصلاحي. وكذلك رفع الوزير خير الدين باشا

---

[29] مُصْطَفَى خَزْنَدَار اسمه الحقيقي هو جورج كاليكياس، سياسي تونسي من أصل يوناني، ولد عام 1817 بجزيرة ساقسفي اليونان، وتوفي في 26 جويلية 1878بمدينة تونس. وكان يشغل منصب الوزير حيث أسندت إليه الوزارة الكبرى لعدد من البايات الحسينيين. (الكوكي، عادل حسن، مصطفى خزندار ودوره السياسي والاقتصادي في تاريخ البلاد التونسية خلال القرن التاسع عشر 1837-1878م)، رسالة دكتوراه، جامعة تونس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، 2008م، ص26) دار المنظومة.

لوائح للخليفة العثماني السلطان عبد الحميد الثاني في شكل مشاريع إصلاحية في الدّولة العثمانية، تناول فيها العديد من المواضيع مثل تحديد الأجور التي تُمنح للقائمين على الجيش وخطط لتعليم الجنود، وكذلك عن السلطة التشريعية مثل الانتخابات وطرقها وفرض القيود على هذه السلطة، وسن القوانين التي تمكنه من محاسبة كبار المسؤولين في الدولة، والكثير من المقترحات التي تخدم المشروع الإصلاحي في الدولة العثمانية[30].

المطلب الرابع: وفاة خير الدين باشا التّونسي وأقوال العلماء فيه:

أولاً: وفاة خير الدّين باشا التّونسي:

يعد خير الدين من الشّخصيات الناجحة التي مرت على تونس في تاريخها المعاصر، وذلك بفضل أدائه المتميز في المناصب التي تقلدها، وكيفية تسييرها والنهوض بها، ونبوغه في الميادين السياسية والعسكريّة. وهذا ما لفت انتباه الخليفة العثماني في الآستانة مما دفعه إلى استدعائه للاستفادة من خبراته. وفي الرّابع من كانون الأول سنة 1878م، قلّده الخليفة العثماني منصب الصدر الأعظم وهو المنصب الأعلى في الدولة العثمانية بعد منصب السّلطان.

ولكن حدثَ لخير الدين مشاكل عديدة، وواجه اتهاماتٍ كثيرة، لمواقفه النبيلة وسعيه للإصلاح في الفترة التي كانت تعاني فيها الدّولة العثمانية من الضعف والانكسار وتفشي الفساد كما سيأتي لاحقاً[31].

---

[30] عبد السلام: أحمد، **مواقف إصلاحية في تونس قبل الحماية**، (تونس، الشركة التونسية للتوزيع، ط1، 1987م/ 1407هـ)، ص 9 وما بعدها.

[31] التونسي، **مذكرات خير الدين التونسي**، ص 14.

لذلك قدّم خير الدين طلب الاستقالة إلى السّلطان سنة 1879م، وبقي مقيماً في الآستانة حتى وافته المنية في 30 يناير سنة 1890م، ودفن في مقبرتها، وفي سنة 1968م، طلب الرئيس التونسي وقتها الحبيب بورقيبة نقل رفاته إلى تونس وإعادة دفنه في مقبرة الزلاج تكريماً وتشريفاً له[32].

ثانياً: أقوال العلماء في الوزير المجدد:

خير الدين التّونسي شخصية استحقت وبكل جدارة أن يكون الرّجل الأول في تونس في زمانه، لما امتاز به من صفات وأفعال نبيلة جعلته فخراً لعصره وما تلاه، حمل راية الإصلاح ومضى في سبيل تحقيقه، ووقف في وجه كل من عارضه بكل قوة، وحاول إصلاح ما أفسده المفسدون، ولكنه لقي معارضة قوية وشديدة جعلته يعتزل ويبتعد عن كافة الميادين السياسية وغيرها من الميادين حتى وافته المنية، ونورد بعضاً من أقوال المنصفين في حقه:

حيث قال أحمد أمين في خير الدين باشا:" كان مصلحاً اجتماعيًّا وسياسيًّا من جنس مدحت باشا، غير أنّ الفرق بينهما كالفرق بين السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده؛ فمدحت باشا يُصلح، وإن عجز عن الإصلاح ثار ودبّر الانقلاب، وخير الدين يُصلح، فإن عجز عن الإصلاح رفع يديه إلى السماء وقال: اللهم إنّي قد بلّغت"[33].

وقال الأستاذ محمد الحدّاد عن خير الدين التّونسي في مقال له بإحدى المجلات:" لقد كان خير الدين شاهداً على عصره، أي القرن التاسع عشر الذي تميز بانهيار المجتمعات العربية

---

[32] جيتين: أتيلا، **خير الدين التونسي من خلال وثائق تونسية وتركية نادرة**، مصدر سابق، ص 230.

[33] أمين: أحمد، **زعماء الإصلاح في العصر الحديث**، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، د.ط، 1948م)، ص183

والإسلاميّة، كما تميز أيضاً بميلاد النهضة العربية الحديثة. ولئن لم يحقق خير الدين باشا مراده في الإصلاح فإنّه قد أذكى شرارته أينما مرّ، وترك كتابه وثيقة من الوثائق الإصلاحيّة الأساسيّة"[34].

وقال الأستاذ عبد اللطيف بلمعطي عن خير الدين باشا:" لقد تميّزت شخصية خير الدين التّونسي بالمزج ما بين الفكر والسياسة، الأمر الذي جعله استثناء عن غيره ممن سبقوه من رجالات الإصلاح بتونس، فقد أوكلت إليه العديد من المهام وهو في سنّ مبكرة"[35].

ويقول الأستاذ سمير أبو حمدان في سياق الحديث عن مشروع خير الدين النهضوي: "من الألقاب التي اشتهر بها السياسي والمفكر الإصلاحي خير الدّين التّونسي لقب أبو النهضة التونسية الحديثة، وليس ذلك بكثير على رجل كانت النهضة شغله الشّاغل"[36].

ويقول الأستاذ إسماعيل محمد زين الدين عن رفاعة الطهطاوي وخير الدين باشا:" يُعد كل منهما خلال هذه الفترة التّاريخية نموذجاً من حيث الرؤية إلى الآخر بمختلف جوانبها الثقافية والاجتماعية والسياسية، وباعتبارهما كانا يمثلان ذلك التيار التجديدي في الفكر العربي الإسلامي ومحاولة دفعه نحو النشاط والتطور... كما كانا من أكثر الدعاة إلى الخروج من عزلة العصور الوسطى والأخذ من الحضارة الأوربّية... وضرورة مواكبة المصالح المتجددة للمسلمين"[37].

---

[34] الحداد: محمد، **"لماذا يظل خير الدين معاصراً لنا؟"**، وقائع ندوة: خير الدين التونسي، (تونس: المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون– بيت الحكمة، 2010م)، ص 91– 92.

[35] بلمعطي، "**تخبوية الإصلاح المغاربي زمن القرن الناسع خير الدين باشا وأحمد النصري أنموذجاً**"، مجلة: مدارات تاريخية – دورية دولية محكمة ربع سنوية، س1/ عدد خاص، 2019م، ص 270.

[36] أبو حمدان، **خير الدين التونسي أبو النهضة التونسية**، ص 5.

[37] زين الدين، "**الآخر نموذج مصري تونسي الطهطاوي وخير الدين**"، ص 154.

الفصل الأول:

الحضارة في فكر الوزير المصلح خير الدّين التّونسي:

كثُر الحديث قديماً وحديثاً عن الحضارات التي عاشتها الشعوب بمختلف أزمانها وأماكنها، وتعاقبت أمم وشعوب منها من ارتقت وسطرت أروع الملامح الحضارية والتقدم والتطور والتي ما تزال شاهدة عليها، وللوصول إلى مفهوم الحضارة من منظور خير الدين التونسي، وكيف عمل جاهداً إلى تطبيقها على المجتمع التونسي فلا بدَّ أن أوضح مفهوم الحضارة والمراد منها.

وسأقوم هنا بتقسيم الفصل على ثلاثة مباحث، وما يندرج تحتها من مطالب بحسب الحاجة بإذن الله تعالى:

المبحث الأول: مفهوم الحضارة ورؤية خير الدّين باشا في الأخذ عن حضارة أوروبا:

يدور الكلام في هذا المبحث حول مطلبين أساسيّين نوضح من خلالهما مفهوم الحضارة بشكل عام، ثم نبين رؤية خير الدين باشا في وجوب الأخذ من الغرب والتعلم منه في ذلك:

المطلب الأول: مفهوم الحضارة:

تعدُّ الحضارة أصلاً موجوداً في جذور التّاريخ منذ فجر الإنسان الأول على وجه الأرض، حيث إن هناك تلازماً بين وجود الإنسان والحضارة منذ القدم، فحيثما وجد الإنسان وجدت

الحضارة، والتي تعزز من بقائه واستمراره، والحضارة في المفهوم العام هي ثمرة أي جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته[38].

وتعددت تعريفات الحضارة قديماً وحديثاً وإن تقاربت في النتيجة والمضمون، وقد تختلف هذه التعريفات من حيث المقصود منها بحسب ما توصلت هذه الأمم وفق مستواها ودرجتها الحضارية.

حَضارة [مفرد]: ج حضارات (لغير المصدر):

1 – تمدُّن، عكس البداوة، وهي مرحلة سابقة من مراحل التَّطوّر الإنسانيّ "بلغت الحضارة الإسلاميّة أَوْجَهَا في القرن الرابع الهجريّ"[39]. والحضارة عند أهل اللغة مصطلح قد استعمل من عدة أوجه، فـ(الحَضَرُ) بفتحتين هو خلاف البدو، و(الحاضِر) ضد البادي، ونجد كلمة (الحاضِرة) ضد البادية، فالحاضِرة هي المدن والقرى والأرياف في حين أن البادية ضدها ونقيضها؛ و(الحِضارة) بالكسر وتعني الإقامة في الحَضَرِ[40].

ويرى الباحث أنّ المسلمين قد اهتموا بعمارة الأرض وبنائها وإصلاحها بمختلف وجوه الإصلاح والتطوير، يقول الله تعالى: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (هود: 61)، ولقد حثّ النبي صلى الله عليه وسلم على إعمار الأرض حتى في أصعب المواقف، "حَدَّثَنَا بَهْزٌ، حَدَّثَنَا حَمَّادٌ، حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ زَيْدٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنْ

---

[38] مؤنس: حسين، **الحضارة: دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها**، (الكويت: منشورات عالم المعرفة 1، 1978م)، ص 13.

[39] عمر: أحمد مختار عبد الحميد، **معجم اللغة العربية المعاصرة**، (القاهرة: عالم الكتب، ط 1، 1429 هـ-2008م)، ج1، ص 513.

[40] الرازي: زين الدين محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي، **مختار الصحاح**، (بيروت: مكتبة لبنان، 1986م)، ص 60.

قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ»"(41)، ونلاحظ أن أهم أسس العمران هما الإنسان والأرض، وهو مقصد من مقاصد الاستخلاف البشري في الأرض، لغاية أرادها الله تعالى ألا وهي العبودية له، حيث يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: 56)، فديننا يأمرنا بحسن الأداء والقيام بواجب الاستخلاف الذي أقامنا على هذه الأرض من أجله، وهذا يؤكد على عناية المسلمين بالحضارة لكونها متولدة عن أداء مهمة الاستخلاف هذه.

وإن العلامة ابن خلدون نظر إلى أن مفهوم الحضارة إنما هو عكس البداوة، فالحَضَرُ هم من عاشوا المدن والأمصار ورأوا العمران فتأثروا بالمدنية وتوابعها من الترف والكماليات ونحوها، على العكس من البدو الذين استمروا في انعزالهم واقتصارهم على ضروريات العيش والمسكن وأحوالهم وعوائدهم[42].

ومن المعاصرين الغربيين إدوارد تايلور الذي عرف الحضارة بأنها: "الكل المركب الذي يجمع بداخله جميع المعتقدات والقيم والتقاليد والقوانين والمعلومات والفنون وأي عادات أو سلوكيات أو إمكانات يمكن أن يحصل عليها فرد ما في مجتمع ما"[43]، وعبر عنها رالف بدنجتون بقوله:" إن حضارة أي شعب ما هي إلا حزمة أدوات فكرية ومادية تمكن هذا الشعب من قضاء حاجاته الاجتماعية والحيوية بإشباع، وتمكنه أن يتكيف في بيئته بشكل مناسب"[44].

---

[41] أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في **المسند**، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه، ج20، ص 296، رقم (12981).

[42] ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد بن محمد، مقدمة ابن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، (بيروت: دار الفكر، 1431 هـ/2001م، ج2)، ص152.

[43] عبده: سمير، **العرب والحضارة العلمية الحديثة**، (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ط1، 1402هـ/1982م)، ص27.

[44] المصدر السابق.

ومن هنا يستنتج الباحث أن مفهوم الحضارة هو الانتقال من حال إلى حال حسب الوسائل العلمية المستخدمة سواء العلمية والفكرية والاجتماعيّة وحتّى السياسية وفق معطيات العصر الذي نعيش فيه.

ومن خلال بحثي وجدت أن خير الدين لم يقدم تعريفاً واضحاً للحضارة، وإنما قدم مفهوماً شاملاً يتضمن الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتعليمية، وقد عدَّ خير الدين باشا أن التقدم الحضاري يعتمد على العدل والحرية، وبهما تقدمت أوروبا فلذلك كان معجباً الحضارة الأوروبية، وكان منفتحاً عليها ودعا إلى الاستفادة من إنجازاتها على كافة الأصعدة وخصوصاً السياسية والعلمية مع المحافظة على الهوية الإسلامية.

المطلب الثاني: رؤية خير الدين باشا بلزوم الأخذ عن أوروبا:

تعدُّ البيئة الاجتماعية الأساس الذي تُكون شخصية الفرد الذي يعيش فيها هو وتؤثر على صفاته وتكوينه بصفات جديدة، وقد تنشأ هذه الصفات كردة فعل على الواقع الذي يعيشه والبيئة التي نشأ فيها.

ووجدت أن خير الدين باشا التونسي قد نشأ وترعرع في تونس، وكانت تونس كغيرها من البلدان التي تخضع لنفوذ الخلافة العثمانيّة وتعاني من بعض التأخر والتخلّف والابتعاد عن العلم، وذلك نتيجة للاهتمام العثمانيين وقتها بالشؤون الحربية والعسكرية ممّا أدّى إلى إهمال الجانب العلمي والاجتماعي والاقتصادي، وكان لهذا الأمر دور بارز في ضعف هذه البلدان ومشاركتها في اللحاق بالحضارة ومقدماتها[45].

---

[45] أبو حمدان، **خير الدين التونسي أبو النهضة التونسية**، ص 16 وما يليها بتصرف.

عاش خير الدين باشا هذه الحالة التي مرت بها تونس بمختلف أطوارها ونتيجة تقلده العديد من المناصب في الدّولة، وبحكم تنقله بين تونس وبعض الدول الأوروبية مثل بريطانيا وفرنسا وايطاليا وألمانيا والنمسا وهولندا والدنمارك وغيرها من الدول الأوروبية لاحظ الفرق الكبير بين تونس وهذه الدّول الأوروبية، فقد كانت هذه الدّول في أوج التقدم والتطور الحضاري، وظهر ذلك جلياً في مختلف القطاعات العمرانية والثقافيّة والأساليب الحديثة والمتطورة في الحياة بشكل عام. وقد أجرى دراسة حول أسس الحضارة الغربيّة بمؤسساتها المختلفة، وخاصة عندما تم تكليفه من قبل الأمير الصادق باي بوضع ضوابط للنّظام الأساسي في العلاقات بين الدولة العثمانيّة وولايتها في أفريقيا، مما جعل خير الدين باشا يتجه إلى اتباع أوروبا لإخراج تونس وغيرها من الدول من هذه الحالة الذي تعيشها، وإيقاظها من رقادها[46].

وقد استفاد خير الدين باشا من رحلاته وتواصله مع الحضارات الأوربّية والتي زارها واستفاد منها في توسيع أفقه الحضاري، ورأى بأن عليه أن يعكس تلك الصورة الأوروبّية على تونس، فبدأ بمشروعه الإصلاحي، ورأى خير الدين أنه لا مانع من الأخذ من أوروبا طالما لا يتنافى مع مبادئ شريعتنا ويتوافق معها.

وعلى الصّعيد التّجاري فإنّ تونس وبعد مؤتمر فيينا 1815م، فُتح عليها باب دخول التّجار الأوربّيين والذين غزوا أسواقها وسيطروا على تجارتها، وروجوا لبضائعهم وأغرقوا السّوق التّونسية بها،

---

[46] فرج: سعيد؛ وقداشي: صدام، **المشروع النهضوي في فكر ابن العنابي الجزائري وخير الدين التونسي من خلال كتاب السعي المحمود في نظام الجنود وأقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، (الجزائر: جامعة الدكتور يحيى فارس بالمدية، 2015-2016م)، ص 25 – 26." بتصرف".

وصدروا المنتوجات التّونسية إلى بلدانهم، وأصبحوا المتحكّمين بالسوق التّونسي واقتصاد البلاد، وهذا ما ساهم في تدميره، وأوقع البلاد في أزمة اقتصادية بسبب الاحتكار الأوروبي للتّجارة في تونس، وما زاد الأمر سوءاً تهريب العملة التّونسية إلى الخارج [47].

وقد كان أحمد باي حاكم تونس بعيداً كلّ البعد عن قبول فكرة التّنظيمات العثمانيّة والتفاعل الإيجابي معها ورافضاً لفكرة التقيد بالنظم الأوروبيّة، وكان يقوم ببعض الإصلاحات الظاهرية معتمداً على القروض من أوروبا مما أدى إلى وقوع تونس في أزمة ماليّة، وخاصة بعد تورطه في مظاهر الترف والبذخ، ورفع نسبة الضّرائب على الشّعب والتي أثقلت كاهله. وكان يعتمد في جباية الضرائب على وزيره مصطفى خزندار ومحمود بن عياد، وكان بينهما مصالح مالية مشتركة، فقد كانا يكسبان منها مغانم كثيرة وصفقات مالية أضرت بالاقتصاد التّونسي. وما زاد الأمر سوءاً هروب محمود بن عياد إلى فرنسا سنة 1852م، ومطالبته الحكومة التّونسيّة بتعويضه عن ديونه المزعومة على أساس وثائق ومستندات مزورة، وهذه الدّيون دمّرت الاقتصاد التّونسي وأضعفت البلاد وكبدتها خسائر فادحة[48].

وفي خضم هذه الأحداث ظهر الوزير المصلح خير الدين التونسي، فقد أرسله الباي إلى فرنسا سنة 1853م، لينوب عنه في التّرافع في القضية التي رفعها محمود بن عياد قابض الأموال السّابق ضد حكومة تونس، ممثلاً عن هذه الحكومة لدى اللجنة التحكيمية في فرنسا.

---

[47] دوحة: عبد القادر، "الإصلاحات السياسية والإدارية لخير الدين التونسي في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي وعلاقتها بالحضارة الغربية"، مجلة عصور الجديدة، العدد 11- 12، 1434- 1435هـ/2013- 2014م، ص 248." بتصرف".

[48] المرجع السابق، ص 248-249. "بتصرف".

أستنتج أن خير الدين استفاد من زياراته لباريس كثيراً، إذ اطلع على المنجزات الحضارية لدى الغرب، وقارن بين واقع بلاده والغرب الأوروبي المستنير والمتقد حيوية ونشاطاً كي تتم الاستفادة من تجربته الحضارية وتقدمه وتطوره، وكانت هذه بداية نجاحه ونبوغه في ميدان السّياسة من خلال نجاحه في المهمة التي أوكلت إليه.

المبحث الثاني: ضرورة الخروج من التخلف والانحطاط الحضاري إلى نظام عصري مُشرق:

لقد عاش خير الدين التونسي المصلح وتربى على العلم، واطّلع من خلال ذلك على أمهات كتب العلوم الشرعية، كما اطّلع على قصص الأقوام السابقة مثلما ذكرها القرآن الكريم، ولمس من خلال قراءته ودراسته هذه القصص البعدَ الحضاريَّ لها وكيف تدرجت وخرجت من الجهل والتخلف إلى أعلى مراتب التقدم والتطور الحضاري، واستفاد من هذه التجارب وحاول الإستفادة منها في مشروعه الإصلاحي في الدولة والمجتمع لتكون في مصاف الدول المتقدمة والمتطورة.

فرأى من خلال نظرته الثاقبة وغيرته على وطنه وشعبه ما آلت إليه الأحوال وعمل جاهداً على إحداث التّغيير، وإنشاء منهج إصلاحي يغير من حاله إلى الأفضل، وساهم في تطبيق القانون، واعتباره فوق الجميع، ومحاسبة الفاسدين والمستبدين، والوقوف في وجههم ومنعهم من استغلال سلطتهم لمصالحهم الشّخصية، والمضي نحو الهدف الذي وضعه نصب عينيه وهو السير نحو الإصلاح الحضاري للبلاد.

ومن خلال هذا البحث لاحظت أن خير الدين باشا تأثر بالشريعة الإسلامية في فكره الإصلاحي واقتبس منها وبنى منهجه الإصلاحي وفقاً لها. يقول خير الدين: وكان بمقتضى ديانته من الدارين أن الشريعة الإسلامية كافلة بمصالح الدارَين، ضرورة أن التنظيم الدنيوي أساس متين لاستقامة نظام

الدين، يسوءُه أن يرى بعض علماءِ الإسلام الموكول لأمانتهم مراعاة أحوال الوقت في تنزيل الأحكام"[49].

ظهر خير الدّين باشا في ذلك الواقع الذي آلت إليه تونس من التأخر والتخلّف، فدفعه الإيمان والغيرة على وطنه لإحداث التغيير فيها، وسعى من خلال تقلده المناصب وترقيه فيها إلى القيام بحركة إصلاحية لبعث الروح فيها ومحاسبة كل من يسعى لخرابها وتدميرها، فمنذ أن تقلد منصب وزير البحريّة قام بإحداث تغييرات وأسهم من خلال خبرته وحنكته وأفكاره الإصلاحيّة بدأ بتطوير مرافقها جميعاً كما سيأتي لاحقاً خلال هذا البحث.

وعندما أوكلت إليه مهمة رئاسة المجلس الأكبر، ساهم في تنظيم مرافقه وتوجيه نوابه وأعضائه نحو إصلاح شؤون الدولة السياسية، والنهوض بالدولة وإخراجها من حالة الضّعف السياسي نتيجة الاستبداد والتفرّد بالسّلطة واستغلال المنصب من قبل بعض الوزراء، وضعف الباي الحاكم وقتها وفقدانه الهيبة والهيمنة[50].

وبدأ خير الدين باشا بالتركيز على ضرورة الأخذ بالمعارف بشتى أنواعها وأشكالها، وسعيه نحو محاكاة أساليب العمران وتطورها مستفيدًا ممّا شاهده وعاصره في أوروبا، إضافة إلى ربط خير الدين باشا فكره بين ماضي الأمة الإسلامية وما كانت عليه من التطور والتقدم في شتى أنواع العلوم والمعارف والازدهار والقوة والتفوق العمراني، والذي أكدته الشريعة الإسلامية وعدّته مطلباً أساسياً يدل على حسن خلافة المسلم في الأرض، فإذا به يقوم بنقل تلك الصورة ويحولها إلى تونس، جامعاً ذلك بأسلوب رائع وبفكر ملهم بين الماضي العمراني الإسلامي العريق من جهة، وبين التطور الأوروبي في

---

[49] التونسي، **أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**، تقديم: محمد الحداد، ص4.

[50] الحداد، محمد، "**لماذا يظل خير الدين معاصراً لنا**"، ص 97، "بتصرف".

الوقت الحاضر والمعاصر من جهة أخرى، ليقوم برفع قدر بلاده وتغيير هيئتها من الناحية العمرانية، لتظهر بتلك الصورة المهيبة والرائعة، لتدخل بعد ذلك تونس في مرحلة جدية من التطور المعرفي والعمراني الجديد، وفق خطة وضعها وأسس مبادءها ومرتكزاتها على أساس نظام حديث ومتطور[51].

أستنتج أن كل ما سبق الحديث عنه من محاولات خير الدين باشا الإصلاحية والتي أسهمت في وضع اللبنة الأولى للانتقال من طور التخلف إلى مرحلة التأسيس للنهضة والسير نحوها، إنما كانت نتيجة للخبرات والمعارف التي اكتسبها وجمعها من خلال إقامته في فرنسا وتنقله بين الدول الأوروبية، وبدأ بها بكل إخلاص ووطنية وبدافع إيماني نحو وطنه تونس، وضرب بكل ما أوتي من علم ومعرفة وخبرة وفكر على أيدي الفاسدين والمفسدين والمستبدين والحدِّ من صلاحياتهم وإضعافهم بكل ما أوتي من قوة. فقد أراد هذا الرّجل الخير للبلاد والعباد، وسعى إلى إنقاذ تونس من واقعها المرير، رغم تربص أعدائه به ومحاولاتهم إجهاض مشروعه الوطني الإصلاحي، وفي ذلك يقول: "والغرض من ذكر الوسائل التي أوصلت الممالك الأوروباوية، إلى ما هي عليه من المنعة والسلطة الدنيوية، أن نتخير منها ما يكون بحالنا لائقا، ولنصوص شريعتنا مساعداً وموافقاً. عسى أن نسترجع منه ما أخذ من أيدينا، ونخرج باستعماله من ورطات التفريط الموجود فينا، إلى غير ذلك مما تتشوف إليه نفس النّاظر في هذا الموضوع المحتوي من الملاحظات النقلية والعقلية على ما نشره بطيّ فصوله يَضُوع"[52].

---

[51] جيتين، أتيلا، **خير الدين باشا التونسي من خلال وثائق تونسية وتركية نادرة**، ص 80-81، "بتصرف واختصار".

[52] التونسي، خير الدين، **أقوم المسالك لمعرفة أحوال الممالك**، تقديم: محمد حداد، ص6.+

الفصل الثاني: الإصلاح الديني في مسيرة الوزير خير الدين التّونسي

بعدما تسرب الضّعف والوهن إلى دولة تونس بسبب الفساد والاستبداد بالحكم واستغلال الوظيفة والمكانة للمصالح الشخصية، والجو الفاسد والتعليم المتدهور المتخلف الذي جعل همم أصحاب العلم تبرد وتضعف بسبب المستجدات الحاصلة في تونس وقتها، ظهر وزيرنا خير الدين في هذه الظروف، ووقف في وجهها بخطوات إصلاحية واضعاً نصب عينيه إصلاح ذلك المجتمع بكل ما أوتي من طاقة وخاصة بعد تقلده وتنقله بين المناصب، وتوجه بكل طاقته نحو الإصلاح بحسب ما يسمح به الوضع في تونس خلال القرن التاسع عشر[53]، منطلقاً نحو أهم مرتكزات المجتمع المسلم، والدولة ذات الطابع الإسلامي، ليبدأ بالإصلاح الديني في مجتمعه.

كان لهذ التوجه نحو الإصلاح الديني الحظ الأوفر والعناية من قبل الوزير المصلح خير الدين باشا، حيث لا أمل في نهضة وحضارة إذا فسد العلم وأهله، ولا خير في أمة مسلمة ما دامت تتجه نحو مزيد من الضعف والانحدار، وخصوصاً أهل العلم عندما يظهر فيهم الجهل والتخلف بالواقع المعاصر، ولا يكون لهم أي دور اجتهادي في مواكبة العصر وما تستلزمه النوازل والوقائع من أحكام فقهية تناسبها، وهذا ما جعل الوزير المصلح يتجه نحو الاهتمام بالعلم وفتح بعض المدراس وإعادة الزيتونة إلى ماكانت عليه من حيث مكانتهاالعلمية، وشحذ الهمم ليعيد للعلم قوته وانتشاره، وليعيد للعلماء مكانتهم وينير أفهامهم ويصفي أذهانهم ونشاطهم العلمي كما كانوا سابقاً.

---

[53] أبو حمدان، **خير الدين التونسي أبو النهضة التونسية**، ص38 وما بعدها.

المبحث الأول: موقف خير الدين باشا من الاجتهاد والتجديد

كانت هيئة الحكم في تونس تحاول الاحتكام إلى القرآن الكريم باعتبارها هيئة دينية إسلامية وتابعة للحكم العثماني، ولأن وزيرنا المصلح كان ذا نزعة دينية إسلامية، فكان هذا الأمر له أثر كبير في اندفاعه نحو هدفه الإصلاحي أثناء توليه المناصب في الدولة[54].

المطلب الأول: الدعوى إلى التجديد والاجتهاد في الشريعة الإسلامية:

كان خير الدين مهتماً بالرجوع إلى كتب التراث الإسلامي ويظهر ذلك جلياً في (كتابه أقوم المسالك) وخصوصاً كتب الفقه وغيرها، وكان يعتمد على كتاب حاشية الدر المختار للعلامة ابن عابدين[55] من فقهاء المذهب الحنفي، ومن المذهب المالكي كان يعتمد على مصنف سنن المهتدين

---

[54] انظر: قرني: عزت، "الأُمَّة والوطن والمواطن عند رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي"، عالم الفكر، **المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب**، مج19، ع4، 1989م، ص 236.

[55] محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي، فقيه الديار الشامية، وإمام الحنفية في عصره. (معجم المفسرين من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر، المؤلف: عادل نويهض، قدم له: مُفتي الجمهورية اللبنانية الشَّيْخ حسن خالد، الناشر: مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت – لبنان، الطبعة: الثالثة، 1409 هـ – 1988 م، الجزء: 2)

للفقيه المالكي المواق[56]، وبالنسبة للعقيدة فكان يأخذ من كتاب –شرح العقائد النسفية– للمولى سعد الدين[57] وآخرين، وذلك لبناء قاعدة ينطلق منها لتكوين أفكاره نحو إصلاح ديني شامل ومؤصل[58].

ينطلق خير الدين باشا من قاعدة الاقتباس من الغرب، ويتحوّل إلى نقطة مهمة في نظره وتعدّ الفيصل في تطويره الديني ونبذه التقليد الأعمى لما تحمله المصنفات الأم في الشريعة من أحكام واجتهادات من غير فهم لطرق الاستنباط وسُبل أخذ النصوص، والفهم الدّقيق للعلل والقدرة على استخراجها وفهمها فهماً صحيحاً والمقارنة بين النصوص واستخراج المتشابهات منها والترجيح بينها والوصول إلى أقربها لتطبيقها تطبيقاً صحيحاً. وقد أراد من ذلك تخريج أئمة وفقهاء ومجتهدين يحملون على عاتقهم رسالة الإسلام وينهلون من معينها وليقوموا بنشرها وتوصيلها بالطريقة الصحيحة، وتكون

---

[56] المواق (٠٠٠ – ٨٩٧ هـ = ٠٠٠ – ١٤٩٢ م)، محمد بن يوسف بن أبي القاسم بن يوسف العبدري الغرناطي، أبو عبد الله المواق: فقيه مالكي: كان عالم غرناطة وإمامها وصالحها في وقته. من فقهاء المالكية. من آثاره "سنن المهتدين في مقامات الدين" طبع، تفسير الآية 29 من سورة فاطر، في تسع مقامات. (معجم المفسرين من صدر الإسلام وحتى العصر الحاضر، المؤلف: عادل نويهض، قدم له: مُفتي الجمهورية اللبنانية الشَّيْخ حسن خالد، الناشر: مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت – لبنان، الطبعة: الثالثة، 1409 هـ – 1988 م، الجزء: 2، ص 806)

[57] السعد التفتازاني (٧١٢– ٧٩٣ هـ = ١٣١٢– ١٣٩٠م)، النحوي، اللغوي، المفسر: المقرئ: مسعود بن عمر بن عبد الله سعد الدين التفتازاني. (الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة «من القرن الأول إلى المعاصرين مع دراسة لعقائدهم وشيء من طرائفهم، جمع وإعداد: وليد بن أحمد الحسين الزبيري، إياد بن عبد اللطيف القيسي، مصطفى بن قحطان الحبيب، بشير بن جواد القيسي، عماد بن محمد البغدادي، الناشر: مجلة الحكمة، مانشستر – بريطانيا، الطبعة: الأولى، 1424 هـ – 2003 م، الجزء: 3، ص 2643).

[58] حجازي: محمود فهمي، "المصطلحات في بداية النهضة العربية الحديثة بين المشرق والمغرب"، **المجمع الجزائري للغة العربية**، الجزائر، 2015م، مج11, ع22، ص 115." بتصرف".

منطلقاً نحو الإصلاح الديني في المجتمع والدولة، وللوقوف في وجه كل جاهل وفاسد ومعادٍ لهذه التعاليم الدينية[59].

وأسس خير الدين باشا المدرسة الصادقية سنة 1875م بحلة جديدة قادرة على تخريج جيل جديد من الدعاة العصريين والعلماء الصادقين والأئمة المدركين لنهج السلف وفهم القواعد والأصول لبناء حكم يناسب كل نازلة وفق عصرهم، وقام بتغيير المناهج العلمية في المدارس الشرعية في تونس لأجل ذلك[60].

دعا خير الدين باشا إلى ضرور الاجتهاد والتجديد في الشريعة الإسلامية، بما يتوافق مع متطلبات العصر وظروف المسلمين، ودعا علماء المسلمين توسيع مفهوم السياسة الشرعية، والاعتماد إلى جانب القرآن الكريم والسنة الشريفة الاقتداء بالسلف الصالح في الاجتهاد بمايوافقهما، وأكّد على ضرورة الاتحاد بين علماء الشريعة ورجال السياسة لتحقيق مصالح الأمة ودرء مفاسدها، وتفعيل مبدأ الشورى وإقامة العدل[61]، وكان هدف خير الدين باشا من مشروعه الديني الإصلاحي السعي نحو التوفيق بين العلم والعمل، وتخريج علماء ومجتهدين قادرين على مواكبة الواقع المعاصر بعلمهم، والتوفيق بين الشريعة وبين الواقع الأوروبي المتطور وقتها.

---

[59] زيادة: معن، **المجتمع المدني في الوطن العربي ودوره في تحقيق الديمقراطية: "المجتمع المدني والدولة في فكر النهضة العربية الحديثة"**، (بيروت، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية، 2001م)، ص 162 وما بعدها. "بتصرف".

[60] جراي، **خير الدين التونسي وتجربته الإصلاحية في تونس (1822-1877)**، ص 89.

[61] منيمنة: محمد جميل، "السياسة: صناعة القوة والحضارة: خير الدين التونسي وكتابه أقوم المسالك"، الفكر العربي: **معهد الإنماء العربي**، 1985م، مج 6، ع 39 – 40، ص 240، "بتصرف".

وانطلاقاً مما سبق فإن خير الدين باشا يرى أنه لا بدَّ من تطبيق قاعدة أساسية في هذا المضمار،" قاعدة (مراعاة أحوال الوقت في تنزيل الأحكام)"[62]، حيث إنه شرط أساسي لاستمرار بقاء الأمة الإسلامية ووجودها، وإلا فقدت قيمتها وعجزت عن الثبات والديمومة التي هي أساس هذا الدين الحنيف.

وألاحظ أن خير الدين باشا كان يدعو دائماً أن تكون لكل أمة مرجعية دينية وقانونية تحتكم إليها، لكي تسير على الطريق الصحيح، وتنهض بالأمة نحو التطور والتقدم.

المطلب الثاني: موقف خير الدين الشرعي من أوضاع الأجانب في البلاد الإسلامية:

كما هو معروف فإن البلاد العربية بشكل عام وتونس بشكل خاص تتبوأ موقعاً جغرافياً متميزاً، وتعدُّ بوابة الغرب نحو الشرق، بالإضافة إلى تربتها الخصبة ومناخها المعتدل بشكل عام، وإن البلاد العربية تتميز بكونها مليئة بالخيرات المادية والنخب الفكرية، وإن كان عصر الوزير خير الدين باشا متأخرٌ فكرياً، إلا أن جماهيرها يتميزون بأن لديهم القابلية والاستعداد الكبيرين للتلقي والتطور[63].

ولهذا السبب ظهر الوجود الأجنبي في بلادنا بأعراف وديانات وعادات وتقاليد تختلف في الغالب عن تعاليم ديننا الحنيف، وتستند إلى عقائدهم التي يؤمنون بها، والموروثات التي يحملونها من مجتمعاتهم التي نشأوا فيها وترعرعوا بها، وهناك أسباب جعلتهم يأتون إلى بلادنا الإسلامية لغزوها واحتلالها لغايات وأهداف خاصة بهم.

---

[62] التونسي، خير الدين، **أقوم المسالك لمعرفة أحوال الممالك**، تقديم: محمد حداد، ص4.

[63] انظر: المصدر السابق، ص 148.

بعد دخول الأجانب إلى الدول الإسلامية، وانخراطهم في المجتمع ودخولهم الأسواق والتجارة والزراعة والصناعة، وتزاوجهم من الطرفين ودخول بعضهم الإسلام وبقاء البعض على دينهم، فإن الوزير خير الدين باشا يرى بأن لكل إنسان حقه في التمتع بكامل الحريات في ماله ومتاعه ونفسه وفق مبادئ الشريعة وقانون الدولة، والدولة مسؤولة عن تأمين هذا الأمر، وفي ذلك يقول الوزير خير الدين باشا: " ... وأن لا يُسلط أحد على الوقوع في عرض آخر وهتك حرمته، وأن يتصرف كل إنسان في أمواله وأملاكه بغاية الحرية وعدم المُعَاركَة – عدم التضييق – وهذه المساعدة منا جارية في حق المسلمين وغيرهم من أهل الملل التابعين لسلطتنا من غير استثناء أحد منهم"[64].

وأما ما يتعلق بشؤون الأجانب الذين هم تحت كنف الخلافة العثمانية وتحت سلطانها، فإن خير الدين باشا رأى أنه من الواجب على الدولة توفير حقوقهم وتأمين حمايتهم، فهم يدخلون تحت الرعاية العثمانية ولهم كامل حقوقهم وواجباتهم ، حيث يقول في هذا السياق: " وجملة الرعايا من غيرهم_ من غير المسلمين[يقصد في أوروبا]_ ستة عشر مليوناً وستمئة وعشرة آلاف، وإذا نسبنا مبلغ الصنف الثاني إلى الأول، واعتبرنا أنه وإن نقص عن الأول_ الذين هم الرعايا الأصليون في بلاد المشرق_ في الكمية فعنده من أسباب التمدن ما يُجبَر به ذلك النقص، مع وجود العلاقة الجنسية بينه وبين الدول الأوروباوية – هكذا هي عبارة الكتاب – ومساعفتها له على الإلحاح في طلب المساواة في سائر المِنَح من الدولة العلية؛ لكونه من جملة رعاياها وأبناء وطنها"[65].

---

[64] انظر لمزيد من التفصيل في: التونسي، **أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**، ص 150– 151.

[65] المرجع السابق، مع شيء من التوضيح والبيان، ص 161.

وأستنتج من كلام خير الدين باشا أنه ممن دعا إلى حماية الأجانب وصون حقوقهم وإعطائهم الأمان والحماية والمساعدة، بالمقابل يتحتم عليهم احترام مبادئ الشريعة وسيادة الدولة وقوانينها. وقد كان خير الدين باشا قد قيّد علاقته مع سفراء الدول الغربية بما يخدم مصلحة الدولة وقتها، فقد كان حازماً واضحاً في تعامله مع هؤلاء السفراء ومن يتبعهم، ورأى أنه من منظوره الإسلامي تأمين الحماية والأمان لهؤلاء السفراء على نفوسهم وعوائلهم وأموالهم كما حددته الشريعة الإسلامية، وأن الإسلام فوق الجميع وإن لم يعتنقوه، وأن يمارسوا اعتقاداتهم وطقوسهم دون ارتكاب أية مخالفة محرمة جهاراً.

وفي هذا المضمار يقول وبكل وضوح:" أن نتخير منها (حضارة أوروبا) ما يكون بحالنا لائقاً، ولنصوص شريعتنا مساعداً وموافقاً"[66].

من خلال بحثي لاحظت أن خير الدين كان معجباً بالحضارة الأوروبية، يقول خير الدين: " كما تفعله الأمة الإفرنجية، فإنهم ما زالوا يقتدون بغيرهم في كل ما يرونه حسنًا من أعماله، حتى بلغوا في استقامة نظام دنياهم إلى ما هو مشاهد"[67]، ولا ضير أن نقتبس منهم ما يوافق شريعتنا في سبيل نهضة الأمة وتقدمها، وأنه يمكن أن نتعلم من تجربتهم الحضارية، وكيف تقدمت أوروبا ونهضت في كافة المجالات.

---

[66] التونسي، **أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**، ص6.

[67] التونسي، خير الدين، **أقوم المسالك لمعرفة أحوال الممالك**، تقديم: محمد حداد، ص12.

المبحث الثاني: إصلاح التعليم الديني

كان خير الدين باشا يرى أن الإيمان الصحيح الواضح يكون بعدم التّعارض بين الإسلام وتعاليمه وبين عجلة التطور، لأنّه في الإسلام لا تعارُض بين النقل (الكتاب والسنة الشريفة) وبين العقل، ويمكن المقاربة بين الأصالة وبين الانفتاح الحضاري، فخير الدين باشا يشجع على الاجتهاد والتجديد في الشريعة وفق مقتضيات العصر بما لا يتعارض مع أحكام الإسلام وتشريعاته، ودعا إلى المزج بين الرؤية الإسلامية والمعارف الأوروبية، لأنها من أهم أسباب العمران والتقدم، وبدأ بعمل إعادة هيكلة المجتمع التونسي، واهتم بالتعليم والعلماء وشجعهم على ذلك[68]. وبدأ بإقناع المدرسين والعلماء باتخاذ منهجه الإصلاحي التعليمي الديني، وقد ذكرت ذلك سابقاً أن منهجه التعليمي يعتمد على تخريج جيل جديد من الدعاة العصريين والعلماء الصادقين والأئمة المدركين لنهج السلف وفهم القواعد والأصول لبناء حكم يناسب كل نازلة وفق عصرهم، حيث دخل في جدال وحوار مع المتحفظين والمعارضين حول منهجه، ويقول في ذلك: "رجال الشريعة يعلمون الشريعة ولا يعلمون الدّنيا، ويريدون أن يطبقوا أحكام الدين بحذافيرها بغض النّظر عما جد واستحدث"[69].

وأستنتج من كلام خير الدين مدى الجهد الذي يبذله في سبيل نجاح هدفه الإصلاحي على كافة الأصعدة، وخصوصاً منهجه الإصلاحي التعليمي ومحاولته إقناع أولئك المدرسين المحافظين بضرورة التغيير والتطور والتجديد، لإيجاد منهج علمي متطور، لإخراج الجيل الجديد من ظلام التخلف والأساليب تنشئة الجيل ية القديمة والتوجه نحو منهج علمي متطور ومتقدم.

---

[68] أمين، **زعماء الإصلاح في العصر الحديث**، ص 164 وما بعدها.

[69] المرجع السابق، ص 164." بتصرف".

بعد أن نجح خير الدين باشا في رسخّ مشروعه التعليمي الإصلاحي، وأقنع المدرسين والمعلمين وأئمة الدين ومثقفيه بالحجة والإقناع، استجلبهم وبدأ بخطته الإصلاحية في ميدان التعليم فقام بعدة إجراءات وكان أهمها:

1- **إنشاء المكتبة العبدلية:** أنشأ خير الدين باشا هذه المكتبة الحديثة، وجمع فيها الكتب من المدارس والمساجد، وأهداها مئات المخطوطات، لتشتمل المكتبة على شتى فنون العلم، وقام بتبويبها حسب المحتوى أو العنوان أو غير ذلك، لتكون ميسرة ويسهل الوصول إلى المطلوب منها، وتم تنظيم هذه المكتبة بطريقة تحاكي تبويب أشهر المكتبات الأوروبية.[70].

2- **تحسين وتجديد مطبعة تونس:** وهي مطبعة الدولة، وقد قام بإدخال الكثير من التحسينات من جهة العمل والتنسيق وطرق الطباعة وأساليبها وغير ذلك، بعد أن وكّل إليها توزيع كل ما يتعلق بالكتب العلمية والأدبية، وتعدُّ هذه خطوة مهمة من ناحية تطوير المطبوعات من حيث المحتوى والهيئة، وكان يتابع المنشورات وطرق توزيعها على كافة أطراف البلاد، وكان لهذه الخطوة أثرٌ كبيرٌ في دفع عجلة التّطور التّعليمي. وقام كذلك بإجراء التحديثات والإضافات النوعية لعمل المطبعة وتنشيط عملها ونشر مطبوعاتها لوصولها إلى كل مستفيد وقارئ بكل سهولة ويسر[71].

---

[70] جراي، **خير الدين التونسي وتجربته الإصلاحية في تونس (1822-1877)**، ص90.

وانظر: دوحة: عبد القادر، "الإصلاحات الثقافية والعلمية لخير الدين التونسي"، **مجلة الحوار المتوسطي**، الجزائر، ع8، 2015م، ص89.

[71] المصدر السابق، ص 90-91.

3- **الجريدة الرسمية التونسية:** وهي التي تُعرف بجريدة الرّائد التونسي، قام خير الدين بإصلاح إدارتها، والاهتمام بمحتواها ومنشوراتها، وعيّن محمد بيرم الخامس[72] مديراً لها، وعيّن حمزة فتح الله معاوناً للمدير وكاتباً في الجريدة، وكان منصور كارلتي يترجم الصحف الأوربية إلى العربية، وكان محمد السنوسي يكتب المقالات الأدبية، وقد أصدر خير الدين باشا أمراً رسمياً يقضي بأن يقوم كل موظف في الدولة بقراءة الجريدة الرسمية والاشتراك فيها، والتي كانت تصدر كل يوم أربعاء. وهي تعدُّ صوت الحُكومة التّونسية، وقام بتحسينها وتوجيهها نحو برنامج ومضمون يخدم الدين والعلم وينفع كل مثقف[73]، وإضافة رؤى جديدة تساهم في دفع الحركة الثقافية للأمام ولأجل ذلك قام بربط تونس بأهم مركزي نشر في العالم العربي وهما القاهرة وبيروت، حيث كثرت المراسلات بينهم وتم جلب الكثير من الكتب المطبوعة إلى تونس من المشرق بهدف الاستفادة منها[74].

4- **جامع الزيتونة:** اهتم خير الدين باشا بجامع الزيتونة ودوره الأساسي في التعليم الديني، من منطلق أن المسجد هو النقطة الأولى للتربية والتنشئة، نسجاً على منوال سيرة النبيّ صلى الله عليه وسلم بعد هجرته من مكة المكرّمة إلى المدينة المنورة وبنائه لمسجد قباء. فالمسجد يعدّ اللّبنة الأولى في بناء الحضارة والعمران، من هنا جاء اهتمام خير الدين باشا بجامع الزيتونة والذي يعدُّ المهد

---

[72] "عالم رحالة مؤرخ من علماء تونس. ولد بها وولي بعض المناصب، وسافر إلى أوربة. ولما استولى الفرنسيس على تونس (سنة 1298 هـ هجر بلاده وأخذ يجاهد فيهم بقلمه، فمكث في الآستانة مدة. وانتقل إلى مصر (سنة 1302 هـ فأنشأ جريدة (الأعلام) يومية، ثم أسبوعية استمرت نحو أربعة أعوام، واحتجبت بتوليه منصب القضاء في محكمة مصر الابتدائية الأهلية (سنة 1306) وتوفي بحلوان سنة 1889م،، ودفن بالقاهرة. أشهر آثاره كتاب رحلته (صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار – ط) خمسة أجزاء. ومن كتبه (تحفة الخواص في حل صيد بندق الرصاص – ط) و (التحقيق في مسألة الرقيق – ط) و (الروضة السنية في الفتاوى البيرمية – ط). ." {الزركلي، خير الدين: **الأعلام**، (بيروت، دار العلم للملايين، ج3، ط7، 1986م) ص101.}

[73] جيتين، **خير الدين باشا التونسي من خلال وثائق تونسية وتركية نادرة**، ص153.

[74] جراي، **خير الدين التونسي وتجربته الإصلاحية في تونس (1822-1877)**، ص91.

الأول للتعليم الديني في تونس، فأعاد ترتيب أسلوب الدراسة فيها ونظمها وشكل لجنة من العلماء تحت إمرته وأصدر قانون إصلاح التعليم الزيتوني من 68 مادة، يهدف إلى تجديد الثقافة الإسلامية لإصلاح التعليم في جامع الزيتونة، وأدخل فيها العلوم العصرية وطرائق البحث العلمي الحديث، وأهداها مكتبته الشخصية وقام بتطويرها وتحديد الضوابط لاختيار المدرسين فيها بمعاونة علماء الزيتونة وتحديد مهامهم وطرق التدريس فيها[75].

5- **إنشاء المدرسة الصادقية:** وهي المدرسة الثانوية الأولى في تونس والتي أسسها خير الدين التونسي في القرن التاسع عشر سنة 1875م، بهدف تكوين مؤسسة لتطوير أطر الدولة الحديثة، فكانت فكرة إنشاء المدرسة وليدة مشاهدات خير الدين باشا في أوروبا وخاصة فرنسا من تطور وتقدم في مجال التعليم، فشملت هذه المدرسة جميع العلوم الحديثة واللغات الأجنبية كالفرنسية والإيطالية والتركية وطبعاً العربية وعلومها المتعددة وعلوم الدين وفنونه، بالإضافة إلى العلوم الأخرى كالرياضيات والاجتماعيات والطبيعيات وغيرها[76].

وقد ظهر تيار معارض لفكرة إنشاء المدرسة، وكان سبب المعارضة حسب زعمهم أن المعهد الصادقي كان ذا طابع علماني ولا يخدم دولة تونس كبلد مسلم، لأن الهدف منه كان إيجاد فئة من الشباب التّونسيين المتأثرين بالحضارة الغربية والثّقافة الفرنسية، وتكوين فئة من النخب المثقفة والتي تؤمن بالحداثة الغربية وذلك للقضاء على التأثيرات الدينية والموروثات التقليدية المنتشرة بين الأسر

---

[75] المرجع السابق، ص88، بتصرف.

[76] الجابري: محمد عابد، **التعليم في المغرب العربي**، (الدار البيضاء: دار النشر المغربية، 1989م)، ص69 وما بعدها، ."بتصرف".

وانظر: جيتين، **خير الدين باشا التونسي من خلال وثائق تونسية وتركية نادرة**، ص 147.

التونسية، فهدفه حسب زعمهم هو تأسيس مجتمع ليبرالي متحرر في تونس مكان المجتمع المسلم المنضبط بتعاليم الدين الإسلامي.

وكان رأي هذا التيار المعارض أن خير الدين باشا أراد ضرب التقاليد والأعراف التّونسية تحت ستار التطور والحضارة الأوروبية، ويكون الهدف منه إيجاد مؤسسة عصرية تواجه جامع الزيتونة المحافظ، وبالتالي فإن غاية خير الدين باشا من هذه إنشاء هذه المدرسة الصادقية تغريب المجتمع التونسي وإبعاده عن ثوابته وقيمه الدينية الإسلامية والعربية، لإفساح المجال أمام الاحتلال الفرنسي لدخول تونس واستعمارها فيما بعد[77].

ولكن من الإنصاف النّظر في الدوافع التي حملت خير الدين باشا إلى تأسيس هذا الصرح العلمي، فخير الدين باشا إنّما أراد الإصلاح التعليمي في تونس ومواكبة الغرب في تطوره وبنائه الحضاري، وأراد إدخال الأنظمة التعليمية الحديثة لتونس بكافة العلوم التي سبقهم بها الغرب وكانت سبباً في تقدمهم وتطورهم الحضاري، وإتاحة الفرصة أمام المتخرّجين من المدرسة الصادقية لمواصلة تعليمهم وتخصصهم في المعاهد والجامعات الفرنسية المختلفة.

وإذا نظرنا إلى المدرسة الصّادقية بإنصاف أكثر نجد أنها اهتمت بتحفيظ القرآن الكريم والفقه والحديث والتاريخ الإسلامي وعلوم العربية المختلفة والعلوم واللغات الغربية، وهذا دليل على أن خير الدين باشا لم يكن يقصد تغريب المجتمع التونسي المحافظ، بل قصده الإصلاح التعليمي، وقد توافدت على هذه المدرسة أعداد كبيرة من طلاب العلم، وتميزوا ببراعتهم في المدارس الفرنسيّة وفي جامع الزيتونة، وتخرجت منها أعداد كبيرة وانطلقوا بعدها لإكمال تعليمهم في الجامعات الغربية، وعادوا وقد

---

[77] المرجع السابق، "بتصرف".

مزجوا بين الحضارة الغربية وثوابتهم الدينية ونهضوا ببلادهم وشكلوا الحركة الإصلاحيّة في تونس فيما بعد[78].

6- تأسيس المجلة الصادقية: أنشأت إدارة المعهد الصادقي مجلة تابعة لها وتنطق باسمها وتحمل اسمها سنة 1920م، وكانت تصدر مرة واحدة كلّ شهرين، وقد عملت في تحرير المجلة مجموعة متميزة من المفكرين، مثل محمد سعيد الخلصي، ومحمد بورقيبة، ومصطفى آغا، وآخرون لا يخفى طول باعهم في الفكر والعلوم، وكانت من أهم منشورات هذه المجلة المواضيع العلمية والفكريّة والاجتماعيّة والثقافية[79].

وقد اهتم خير الدين باشا من خلال تطويره التعليم الديني بشؤون الأوقاف الإسلامية، وأنشأ جمعية الأوقاف، وأسند رئاستها إلى محمد بيرم الخامس، ليهتم بها تحت نظره، وقام بتحديث الأوقاف وتطويرها وتنظيم أمورها لتحسين أساليب التعليم في المساجد والتي كانت تهتم بحلقات تعليم القرآن الكريم والعلوم الشرعية والدنيوية وغيرها بما يخدم مصلحة الفرد والمجتمع، وساعدت جمعية الأوقاف على ازدهار الزراعة والصناعة والوفاء بالتزامات الديون[80].

---

[78] بوطيبي، "المعهد الصادقي ودوره في الإشعاع العلمي والفكري التونسي في مطلع القرن العشرين"، ص4.

[79] المرجع سابق، ص 4.

[80] جيتين، **خير الدين باشا التونسي من خلال وثائق تونسية وتركية نادرة**، ص 142، "بتصرف".

المبحث الثالث: إصلاح التّنظيمات الاجتماعيّة:

تتشكّل في كل دولة من دول العالم مجتمعات متفاوتة ومتعددة، ويأتي هذا التفاوت حسب الوضع المالي والمادّي أو حتى من الناحية الثقافية ومواكبة الحضارة، وقد يكون التفاوت من ناحية حسن التّنظيم لشؤون الحياة أو سوء التّنظيم، وقد يكون بسبب نقص موارد وخيرات البلاد ووفرتها وسوء تسخيرها لخدمة المجتمع والشّعب.

وكان المجتمع في تونس منقسماً إلى طبقتين: طبقة برجوازية رضيت بالواقع واستسلمت له، وبدأت تقنع نفسها بتفوق هؤلاء الأجانب، وساروا على خطاهم واستولوا على الأموال واكتنزوها وأخذوا عصارة جهد وعناء الشعب الذين تركوهم وراءهم يتخبطون في أوضاع مزرية، وطبقة مستاءة من الوضع الذي وصلت إليه البلاد من ظلم وطغيان وضياع لحقوقهم، فما كان منهم إلا تركوا البلاد لإيجاد ملاذ آمن لهم بدل وطنهم الأم[81].

وقد أولى خير الدّين باشا لإصلاح المجتمع عناية كبيرة، واهتم به ووقف في وجه الفساد والتسلط والاستبداد، ووضع خطة متكاملة للإصلاح الاجتماعي، سنتحدث عنها من خلال مطلبين اثنين:

---

[81] عبد الله: الطاهر، **الحركة الوطنية التونسية: رؤية شعبية قومية جديدة**، (تونس: دار المعارف للطباعة والنشر، تونس، ط2، 1990م)، ص 15-16.

المطلب الأول: إصلاح القضاء:

كان القضاء في تونس غير منظم وتقليدياً، ولا يوجد مكان محدد للقضاء أو قانون ثابت يمكن الرجوع إليه، وهو ما دفع خير الدين إلى ضرورة إصلاح القضاء وإخراجه من هذا الوضع المتأزّم، وقد استفاد في هذا الخصوص من فترة مكوثه في فرنسا في قضية محمود بن عياد واطلاعه على نظام القضاء الفرنسيّ وحسن تنظيمه والإجراءات المتبعة في المجال القضائي منتقياً منها ما هو مناسب لتونس وتجسيده فيها[82].

وكانت أحوال القضاء مضطربة بسبب اختلاف المذهب الفقهي لدى رجال القضاء بين المذهب الحنفي والمالكي، وترددهم بين أخذ الأحكام من أي مذهب، وعدم إخضاع الأجانب لقانون البلاد حيث لا يوجد قانون مضبوط يخضع الجميع لسلطته، فما كان من خير الدين إلا أن اتجه إلى تشكيل مجموعة من المختصين ليقوموا بدراسة القوانين المتبعة في مصر والآستانة وبعض الدول الأوروبيّة بهدف وضع قانون موحد يتناسب مع الوضع التّونسي ولا يتعارض مع التشريع الإسلامي[83].

وضع خير الدين باشا برنامجاً شاملاً لإصلاح النظام القضائي، بدأ فيه بصرف رواتب للقضاة وإصلاح المحاكم الشرعية والمحاكم المختلطة[84] والعرفية[85] ونظم محاكم للنظر في قضايا اليهود وأصلح من حال السجون، وترأس لجنة لإصلاح حال المحاكم الشرعية، وضمت هذه اللجنة علماء

---

[82] جراي، **خير الدين التونسي وتجربته الإصلاحية في تونس (1822-1877)**، ص 82.

[83] أمين، **زعماء الإصلاح في العصر الحديث**، ص 169.

[84] كانت المحاكم المختلطة تنظر في القضايا التّجارية.

[85] كانت المحاكم العرفية تنظر في القضايا بين أصحاب المهن المختلفة.

متخرجين من مدرسة الزيتونة على المذهبين الحنفي والمالكي، وقامت بتنظيم هذه المحاكم الشرعية من حيث ساعات العمل والإقامة وتسجيل القرارات الصادرة عنها وتوثيقها وجواز اختيار أحد المذهبين في إصدار القرارات، وكان خير الدين باشا يقصد من هذا التجديد في نظام القضاء والذي أحدثه وفق الشريعة الإسلامية واستند إلى ما أخذه من النظام الأوروبي لكي يتلاءم مع الوضع في تونس [86].

بعد صدور قانون عهد الأمان سنة 1861، كان خير الدين باشا شديد التحمس له، وكان يشد على يد الباي لإمضائه، حتى يضمن حسن سير القضاء وحفظ حقوق أبناء البلاد من مختلف الطوائف والشرائح، من المسلمين وغير المسلمين، ومما جاء في عهد الأمان حول هذا ما نص عليه الفصل 106: "جميع رعايا الدّول الأحباب لا يقع لهم التّعرّض في أحوال دياناتهم وواجباتها ولا يجبر أحد منهم على تبديل دينه ولا يمنع من الانتقال إلى غير دينه إن شاء وانتقاله لغير دينه لا يخرجه من جنسيّته ولا يمنعه من رعايتها". وأيضاً جاء في نص عهد الأمان: " أن سائر الرعية من المسلمين وغيرهم لهم المساواة في الأمور العرفية والقوانين الحكمية، لا فضل لأحدهم على الآخر في ذلك"[87].

من خلال اطلاع الباحث على نصوص ومواد قانون عهد الأمان والتي كانت بتشجيع من خير الدين باشا للباي لإمضاء تلك القوانين فإنه يستنتج الرؤية الإصلاحية لخير الدين باشا ولمستقبل الإصلاح والنهوض في تونس، وإحقاق الحق ورد المظالم والقضاء على مظاهر الفساد والاستبداد في البلاد، وهذا دليل على تسخيره لطاقاته في سبيل إصلاح البلاد وإخراجها من بوتقة التأخر إلى فضاء التقدم والتطور واللّحاق بركب الحضارة.

---

[86] جيتين، **خير الدين باشا التونسي من خلال وثائق تونسية وتركية نادرة**، ص 127 –128، "بتصرف".

[87] حادة: حافظ، **حقوق الإنسان في قانون عهد الأمان**، رسالة ماجستير، المعهد الأعلى لأصول الدين، (تونس: جامعة الزيتونة، 1998م)، ص 55 و34.

كما وألاحظ بأن الأجانب في تونس كان لهم وضع خاص، حيث كانت البلاد تستفيد من رؤوس أموالهم ومن الاتفاقيات القائمة بينها وبين دولهم، وأيضاً متابعة شؤون اليهود وحمايتهم، لأنهم كانوا مسيطرين على التجارة، فكان لا بدّ من حمايتهم والاستفادة من رؤوس أموالهم في الاقتصاد التونسي[88]، ويتفق خير الدين مع ابن أبي الضياف بأنه لا بدّ من التوفيق بين ما في النظريات الإسلامية المثبتة في كتب الفقه في فصول القضاء وتحقيق العدل وبين روح العصر الذي نحيا فيه، حيث إن اليهود وغيرهم من الديانات والملل الأخرى هم تونسيون بالمولد والأصالة، وكلهم متساوون في الحقوق والواجبات مع المسلمين[89].

مما سبق يدرك الباحث بكل وضوح بأن خير الدين باشا سعى وبكل ما آتاه الله من فطنة وحنكة وحسن سياسة إلى أن يقيم العدل ويحقق المساواة ويطبق القانون على الجميع، ويقضي على الفساد واستغلال المناصب لمآرب شخصية، فالكل عنده مُتساوون أمام القانون.

المطلب الثاني: في إصلاحه للأوقاف:

تعريف الوقف:

"الوقف – ويُجمع على وقوف، وأوقاف –: هو في اللغة: الحبس، تقول: وقفت كذا إذا حبسته. والوقف شرعاً: حبس مال يمكن الانتفاع به مع بقاء عينه بقطع التصرف في رقبته على مصرف مباح موجود"[90].

---

[88] جيتين، **خير الدين باشا التونسي من خلال وثائق تونسية وتركية نادرة**، ص 130.

[89] عبد السلام، **مواقف إصلاحية في تونس قبل الحماية**، ص 165 وما يليها.

[90] الخن: مصطفى؛ والبغا: مصطفى؛ والشربجي: علي، **الفقه المنهجي على مذهب الإمام الشافعي رحمه الله تعالى**، ج5، ص9.

وإن الوقف جائز ومشروع في الشريعة الإسلامية، ويثاب من يقوم به، ويكون باباً للتقرب إلى الله تعالى وبقاء الوقف خيراً جارياً لتحقيق مصالح المسلمين ومساعدة الفقراء والمحتاجين والأيتام وغيرهم[91].

وقد انتشرت الأوقاف بشكل كبير، وتنوعت أصنافه ومداخيله، مما أدى إلى تكوين هيئات تشرف عليها وتسير أمورها وفق الأحكام المستمدة من المجلس الشرعي التابع للنظام القضائي. وقد بدأ خير الدين باشا بانتهاج أولى الخطوات الإصلاحية في هذا المجال منذ صدور قانون عهد الأمان 1858م، ولكن كانت مهمته مراقبة الحسابات الخاصة بتلك الوقاف، إلى أن تمّ تحديد دور الحزمة في المراقبة والتّفتيش سنة 1860م. وقد قام خير الدين باشا بإعادة الأوقاف إلى دورها الديني والاجتماعي، وأنشأ جمعية الأوقاف سنة 1874م، وأسند رئاستها إلى محمد بيرم الخامس، وقام بمتابعة شؤون الأوقاف في أنحاء البلاد، من خلال موظفين قام بتوزيعهم على كافة المدن، بحيث يمكنه متابعة جميع الأوقاف ومعرفة أحوالها ومستجداتها، وكانت التقارير تُرفع إليه بشكل دوري ما يجعله على اطلاع تام على حال الأوقاف، وتشجيع الصائب منها وتعديل وتحسين ما هو خلاف ذلك[92].

وبدأ وضع الأوقاف بالتّحسن وارتفعت مواردها المالية وخصوصاً بعد أربع سنوات من استلام محمد بيرم الخامس لإدارتها سنة 1878م، وتم اتباع أسلوب جديد لتحسين هذه الموارد، وتقرر تخصيص نسبة 6% من الواردات للمشرفين عليها، وكانت جريدة الرائد تنشر التقارير السنوية المرفوعة إليها من كافة إدارات الأوقاف الموزعة في أنحاء البلاد، ويمكن ملاحظة التحسينات التي

---

[91] المصدر السابق، ج5، ص 12.

[92] جراي، **خير الدين التونسي وتجربته الإصلاحية في تونس (1822-1877)**، ص 85.

طرأت عليها، وأصبحت القوة المالية للأوقاف قادرة على دعم كافة المؤسسات من الناحية المالية كونها كانت بأيد أمينة ومخلصة، كتوفير الرواتب في المدارس والقضاء وأئمة المساجد والمعلمين، وأصبحت الأوقاف تدعم الحكومة مالياً، كإنشاء أرصفة الشوارع في العاصمة سنة 1875م، وترميم ما يقرب من ثلاثة آلاف بناء تابع للأوقاف، وقد شكلت الأوقاف قوة إيجابية للحياة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية في تونس [93].

[93] جيتين، **خير الدين باشا التونسي من خلال وثائق تونسية وتركية نادرة**، ص 143 – 144. "بتصرف".

الفصل الثالث:

الإصلاح السياسي:

يعدُّ خير الدين باشا شخصية مزجت بين السياسة والفكر، ويستحق بحق لقب – أبو النهضة التونسية – وقد ساعده في ذلك تقلده المناصب المختلفة وترقيه فيها، وسفره وإقامته في بعض الدول الأوروبية وخصوصاً فرنسا، من خلال المشاهدة والمعاينة واطلاعه على مناهجهم وطرق الإصلاح في بلدانهم.

كان خير الدين باشا رجلاً سياسياً ومفكراً وعسكرياً محنكاً، وقد أراد الخير والصلاح لوطنه تونس وللشّعب التونسي، كما أنه نال الاهتمام من الكثير من الباحثين الأتراك، ومنحوه مكانته المناسبة كسياسي مفكر وعسكري ورجل دولة، وألفوا فيه المؤلفات والرسائل الجامعية ومن أهمها كتاب (خير الدين باشا التونسي من خلال وثائق تونسية وتركية نادرة) للبروفيسور أتيلا جيتين.

المبحث الأول: في إصلاح الحُكم:

مرت تونس بفترات مهمة من التّغيير والتحوّل وكان أبرزها الفترة التي مثَّلها خير الدّين باشا التّونسي، حيث قام بنقلة إصلاحيّة سياسية في تاريخ تطور البلاد التونسيّة، وفي المشهد السّياسي السائد في تلك الفترة، وسعي خير الدين باشا إلى الاتجاه نحو الإصلاح الحضاري، من خلال طريق مليء بالتحديات وانفراد بالسلطة والاستبداد بها، وفي ظل حاكم متفرد ومستبد بالحكم، ومن خلال حاشية تستغل هذا الحاكم وتستغل سلطتها للفساد والإفساد في البلاد، على حساب شعب تم إغراقه في ظروف معيشية صعبة وضرائب تثقل كواهلهم، يظهر خير الدين باشا بخطة إصلاحية تنقذ البلاد، وتدفع تونس نحو التغيير والتحول الحضاري.

وأرى أن الإصلاح السياسي لدى خير الدين باشا وأسلوبه يشبه إلى حدّ كبير أسلوب رفاعة الطهطاوي، ويعدّ كل منهما نموذجاً للإصلاح في تلك الفترة التاريخيّة، كونهما يمثلان تياراً تجديدياً في الفكر العربي والإسلامي، حيث دعا كل منهما إلى الأخذ من الحضارة الأوروبية فيما لا يتعارض مع أحكام الشّريعة الإسلامية[94].

وقد عكف خير الدين باشا على تأليف كتابه المسمى ب (أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك)، وألاحظ تأثر خير الدين باشا بابن خلدون رائد الإصلاح السياسي والاجتماعي وبمقدمته الشهيرة، وقد اشتمل كتابه على مقدمة ضمنها حال البلاد الإسلامية وأسباب الانحطاط بعد الازدهار وكيفية إصلاح الوضع، وتاريخ الممالك الأوروبية وأحوالها من ناحية إدارة كل دولة وجيوشها ونظام الحكم فيها، وكان القصد من ذكرها نقل صورة النهضة والتطوّر الحضاري لهذه الممالك، حتى تتمكن الدول الإسلاميّة من الاقتباس منها في سبيل تقدمها ونهضتها[95].

المطلب الأول: مبدأ الشورى:

"الشُّورَى والمَشُورَة، بِضَمِّ الشِّينِ، وَتَقُولُ مِنْهُ: شَاوَرْتُه فِي الأَمر واسْتشرته بِمَعْنًى. واسْتَشَاره: طَلَب مِنْهُ المَشُورَة"[96].

و"الشورى، والمشورة: هي الاستعانة بآراء الآخرين للوصول إلى الحقيقة، وحل المشكلات على أساسها"[97].

---

[94] زين الدين، "**الآخر نموذج مصري تونسي الطهطاوي وخير الدين**"، ص 249- 250.

[95] أمين، **زعماء الإصلاح في العصر الحديث**، ص 158-159، "بتصرف".

[96] ابن منظور: محمد بن مكرم، **لسان العرب**، (بيروت: دار صادر، ط3، 1414هـ)، م4، ص437.

كما ذكرت سابقاً فخير الدين باشا قد زار بعض الدول الأوروبية واطّلع فيها على أسباب النهوض والتقى فيها بمجموعة من السّياسيين والمصلحين، وأقام في فرنسا قرابة خمس سنوات منذ 1852 – 1856، اطلع فيها على أسباب نهضتها وتطورها أيضاً، مما جعله يزداد حباً وحماسة للإصلاح في بلاده كما شاهدها في تلك البلاد.

بعد عودة خير الدين باشا إلى تونس، وكان محمد باي حاكماً للبلاد قام بتشجيع من خير الدين باشا بإصدار مرسوم ينص على المساواة بين جميع المواطنين في الحقوق العامة والذي سمي ب (عهد الأمان) سنة 1857م، وتم تعديله وتوضيحه سنة 1861م، في عهد الصادق باي حيث كان يميل إلى الإصلاح، ليصبح دستوراً عاماً وشاملاً لتونس[98]، وقام بإنشاء مجلس شورى للبلاد – وسمي المجلس الأكبر – وإسناد رئاسته إلى خير الدين باشا في 25 ماي 1861م،

وقد عدَّ خير الدين باشا الشورى أساس الملك وقوام الحكم، لأنها تقيد سلطة الحاكم وتخلصه من تفرده واستبداده، وقد كانت وصية الرسول صلى الله عليه وسلم ومن سننه مشاورة أصحابه وسماع آرائهم، كما فعل عندما أشار عليه الصحابي سلمان الفارسي رضي الله عنه بحفر خندق حول المدينة المنورة في غزوة الخندق لحمايتها من المغيرين، وقال: "يا رسول الله، إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا"[99]. يقول خير الدين باشا: "ولما أشار سلمان الفارسي رضي الله عنه على رسول الله ﷺ

---

[97] الخن: مصطفى؛ والبغا: مصطفى؛ والشربجي: علي، **الفقه المنهجي على مذهب الإمام الشافعي رحمه الله تعالى**، (دمشق: دار القلم، ط2، 1992م)، ج8، ص271.

[98] الإمام: رشاد، **التفكير الإصلاحي في تونس في القرن التاسع عشر إلى صدور قانون "عهد الأمان"**، ص219–220. "بتصرف".

[99] حبيب: سعد عبد السلام، **الشورى في الإسلام**، (القاهرة: كتب إسلامية– المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، د.ت)، ع189، ص18.

أن من عادة الفرس أن يطوقوا مدنهم بخندق حين يحاصرهم العدو؛ اتقاءً من هجومه عليهم، أخذ رسول الله ﷺ برأيه، وحفر خندقًا للمدينة في غزوة الأحزاب، عمل فيه بنفسه ترغيبًا للمسلمين"[100].

وكانت هذه وصية الله تعالى للرسول صلى الله عليه وسلم حين أوصاه بلين القول وطيب الفعل وحسن المشاورة لأصحابه رضي الله عنهم، يقول الله تعالى: :﴿ فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (سورة آل عمران: 159)، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم استشارته أصحابه في الكثير من الأمور المختلفة المتعلقة بشؤون المسلمين، كاستشارته لهم في أسرى بدر وأحد وفي صلح الحديبية وغيرها. وقد كانت مشاورة الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه في مكايد الحرب وعند لقاء العدو من باب تطييب النفوس وتأليف القلوب ولكي يشعروا أن الرسول عليه الصلاة والسلام يسمع منهم ويأخذ برأيهم ويستعين بهم في شؤون المسلمين[101]، ولتكون سنة لمن بعدهم يسيرون عليها وفق النهج النّبوي القويم.

وقد مدح الله تعالى المؤمنين صنيعهم في الشورى فيما بينهم حيث قال:﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ (سورة الشورى:38)، ولإمام المفسرين ابن جرير الطبري في هذا الصدد كلام نفيس:" إن الله عز وجل أمرَ نبيه صلى الله عليه وسلم بمشاورة أصحابه فيما حزبه من أمر عدوه ومكايد حربه تألُّفاً منه بذلك من لم تكن بصيرته بالإسلام البصيرةَ التي يُؤْمَنُ عليه معها فتنة الشيطان، وتعريفاً منه لأمته مأتى الأمور التي تحزُبهم من بعده ومطلبها، ليقتدوا به في ذلك عند النوازل التي تنزل بهم، فيتشاوروا فيما بينهم، كما كانوا يرونه في حياته صلى الله عليه وسلم يفعله. فأما النّبي صلى الله عليه وسلم، فإن الله

---

[100] التونسي، **أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**، تقديم: محمد الحداد، ص 12.

[101] الطبري: محمد بن جرير، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، (مكة المكرمة، السعودية: دار التربية والتراث، د.ط، د.ت)، ج7، ص 343.

كان يعرِّفه مطالب وجوه ما حزبه من الأمور بوحيه أو إلهامه إياه صوابَ ذلك. وأما أمته فإنهم إذا تشاوروا مستنِّين بفعله في ذلك، على تصادُقٍ وتأخٍّ للحق، وإرادةِ جميعهم الصواب، من غير ميل إلى هوى، ولا حَيْد عن هدى، فالله مسدِّدهم وموفِّقهم"[102].

وقد أدرك خير الدّين باشا من منطلق إيمانه وأساسه الدّيني أن البلاد لن يصلح حالها إلاّ إذا سارت وفق الشريعة الإسلامية ومبادئها، وأنه على من يتولى أمر البلاد أن يتخذ من الشّورى أساساً لحكمه، فهو السبيل لتدبير أمور الدولة وتسييرها، من خلال أخذ المشورة من أصحاب الرأي السديد والحكمة ممن يخشون الله تعالى ويبتغون الخير للبلاد والعباد، وسنده في ذلك ما رآه في الدول من تطبيقهم للشورى والتزام الحاكم بها وعدم التفرد بالحكم والاستبداد بالرأي، فلا ضير إن أخذنا منهم تطبيقهم لهذا المبدأ الذي أصلح حالهم ومجتمعاتهم، فهذا الاقتباس لا يعدُّ كفراً أو مخالفاً لمبادئ ديننا الحنيف من وجهة نظر خير الدين باشا، حيث استدل أن المسلمين الأوائل قد تعلموا الكثير من الأمور من الروم والفرس، والتي ساهمت في تنظيم وإدارة شؤونهم وقتها[103].

وبناء على ما سلف فقد جزم خير الدين باشا أن أيّ نظام سياسي يخلو من مبدأ الشورى فهو نظام مستبد، ويؤدي إلى نتائج وخيمة على السلطة والبلاد وإن الحاكم المستبد مهما كان ذا رأي سديد وفكر مستنير فإنه يبقى متفرداً ومستبداً بالحكم وذا نزعة شخصية وميل لأهوائه والنفع لذاته، يقول خير الدين باشا: "لا يخفى أن لزوم المشورة ومسؤولية الوزراء في الصورة الأولى لا يعطل كامل المعرفة عن مقصده الحسن، بل يعينه حيث إن آراء الجميع متعاضدة على المصلحة، كما أنه يُسهِّل دوام

---

[102] المرجع السابق، ج7، ص 345.

[103] المنياوي، "**الإصلاح السياسي لدى خير الدين التونسي**"، ص 49.

الملك في عائلته، ولو كانوا مما صدقت الصورتان الأخيرتان الواضحتان فيهما تتأكد المشورة والمسؤولية لوجوب المعارضة في الثانية والإعانة في الثالثة، فبذلك يستقيم حال المملكة"[104].

وقد استدل على ذلك بجملة من التحاليل للعلامة ابن خلدون حيث إن التفرّد يؤدي إلى خراب العمران وزواله[105] وأنه يجب إجبار الملوك والحكام على مشاورة أهل الحل والعقد، والتأكيد أنّ الشّورى لن تضيق على الملك أمره وأنه سيبقى حراً في تعيين من أراد وأنه لا يوجد خطر على الملك في حال مشاورة أهل الحلّ والعقد، ويضرب على ذلك مثالاً أن صاحب البستان لا يستغني عن الاستعانة بمن لديه خبرة في الزّراعة وأحوال الأشجار لما يصلحها وما يُفسدها وهكذا[106].

إن الشورى لا تقيد سلطة الحاكم العادل، فالحاكم المستبد والمتفرد بالحكم لا يريد إعمال مبدأ الشورى لكي يستبد بحكمه ويتفرد به ولا يترك مجالاً لأحد بالمشاركة في السلطة سواه، فالشورى حماية للمجتمع من القرارات الخاطئة والفساد والفردية والاستبداد، وبالجانب الآخر فهي تعكس الصورة الحضارية المشرقة والمتطورة للدولة.

المطلب الثاني: تقييد نظام الحكم:

شغل خير الدين باشا الكثير من المناصب السياسيّة المختلفة ما جعله يدرك مواطن الضعف والفساد في النظام السياسي للبلاد، والذي أدى إلى تدهور الأوضاع، حيث اكتشف أن هناك طائفة من المسؤولين الفاسدين في السلطة يستغلون مناصبهم لتحقيق مكاسب ومنافع ذاتية، فكانوا عبئاً

---

[104] التونسي، **أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**، ص 23.

[105] شيخ: ياسين؛ وبو غرارة: محمد الأمين، **خير الدين التونسي حياته وأطروحاته الإصلاحية**، ص41.

[106] الطويلي: أحمد، **دراسات ووثائق عن الحركة الإصلاحية بتونس**، (تونس: مؤسسة سعيدان للطباعة والنشر، 1992م)، ص19. "بتصرف".

ووبالاً على الدولة، وأثقلوا كاهلها وكاهل الشعب بالديون والضرائب، فكانوا سبباً في تأخرها السياسي والعسكري والاجتماعي، وأصبح لزاماً على خير الدين باشا أن يقيد صلاحيات هذه الطائفة وسلطاتها ويحدّ من سيطرتها وتحكمها بمفاصل الدولة ومواردها.

وقد ظهر له أن هذه الطائفة الفاسدة والمفسدة هي صاحبة الحل والعقد في تونس، فلا يصدر قرار إلا من خلالها وبعلمها وعلى رأسهم الوزير مصطفى خزندار، اللذي كان أكثر المناهضين لكل مشروع إصلاحي ونهضوي في البلاد، وخصوصاً الإصلاح السياسي، فهو يعني تقويض نفوذه والحد من سلطاته ومصالحه [107].

وقد حاول خير الدين باشا مع توليه المناصب الإدارية في الدّولة إصلاح سياسة الدولة وساستها، فقد كانت غارقة في فوضى سياسية عارمة وتحتاج إلى رجل سياسيّ محنك للتخلص من هذه الفوضى، فكانت لخطواته الإصلاحيّة أهمّية كبيرة، وعليه فإن أسلوب خير الدين باشا في تقييد الحكم وصلاحيات الحاكم وحاشيته بقوانين تخرجهم من هوى أنفسهم وتعينهم على كبحها، وتساعد في جلب المصالح للبلاد والعباد، فإطلاق أيدي الملوك يجلب الظلم بكل أشكاله، كما هو الحال في الكثير من الدول في وقته وعصره، وكما حصل في الدول الأوروبية في القرون الوسطى، ما أدّى إلى خنق إجهاض أي تطور سياسي فيها، وساهم في انتشار الظلم وقتها[108].

---

[107] شيخ: ياسين؛ وبو غرارة: محمد الأمين، **خير الدين التونسي حياته وأطروحاته الإصلاحية**، ص 39.

[108] المحجوبي، علي: "أثر فكر خير الدين باشا في الحركة الوطنية التونسية"، ص 12.

المطلب الثالث: مبدأ الديمقراطية:

يعدُّ خير الدين باشا من أشد المناهضين للاستبداد والمستبدين، لذا كان منهجه في الإصلاح السياسي الجمع بين فهم السياسة من المنظور الإسلامي وما وصله الغرب من تحول سياسي وبين التأسيس وذلك لبناء صرح سياسي إصلاحي حضاري في تونس.

وبالعودة إلى مبدا الشورى فإنّنا نلاحظ أن الديمقراطية في نظر خير الدين باشا هي مشاركة كافة فئات المجتمع في السلطات، للاستفادة من كافة الخبرات لما لها من آثار حميدة على الدولة وتطورها من الناحية السّياسية، ولكي لا تبقى السلطة بيد شخص الحاكم فيستبد بها، فتكون سبباً للظلم، لذلك لابدّ من فتح المجال أمام أصحاب الملكات والمعارف السياسية للمشاركة في بناء صرح ديمقراطي منيع ولبناء دولة عصرية، لما لذلك من فوائد ومنافع تعود على البلاد والعباد.

وقد مرّ خير الدين باشا بمرحلتين في جهوده الإصلاحية السياسية لتحقيق الديمقراطية المنشودة، إحداهما محاولته التأثير على صنع القرار السياسي قبل مرحلة الوزارة الكبرى، والأخرى منذ تسلمه منصب رئيس اللجنة المالية[109]:

1- المرحلة الأولى قبل الوزارة الكبرى:

حيث بدأ العمل منذ صباه وشبابه مع المشير أحمد باي، وتقلبه بين المناصب السياسية والعسكرية، حيث أراد المشير أحمد باي أن يستفيد من حنكة خير الدين باشا السياسية وبراعة فكره وبُعد نظره، من أجل القضاء على الاستبداد وإحلال العدل والحرية، لكي تحلّ الديمقراطية بكل

---

[109] دوحة، "الإصلاحات السياسية والإدارية لخير الدين التونسي في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي وعلاقتها بالحضارة الغربية"، ص249.

أشكالها. وقد أثرت إقامته في أوروبا وخصوصاً فرنسا في فكره ونظرته إلى واقع بلاده المرير، والوصول إلى تبيّن الفرق بين بلاده والغرب، ومحاولة تجسيد ما رآه في الغرب من حسن إدارة وتنظيم بهدف تحسين العمل الإداري في مختلف مؤسسات الدولة[110].

2- المرحلة الثانية بعد توليه الوزارة الكبرى:

تميزت هذه الفترة بتوسيع دائرة إصلاحاته من خلال الفصل بين السلطات كاللجنة المالية الدولية وبين المالية الحكومية، وذلك للحفاظ على الاستقلال المالي للبلاد واقتصاده من ناحية، ومن ناحية أخرى تحجيم التدخل الأجنبي في شؤون البلاد الداخلية وخاصة السياسية والمالية والاقتصادية[111].

ويُفهم من سياسة خير الدين باشا بأن الديمقراطية لا تتحقق إلا بالاتحاد بين العلم والعمل، وإن هدفها هو حسن حال الأمة، ولتحقيقها لا بدّ من "التجديد التشريعي – السياسي" بمعنى أن يؤخذ من باقي الأمم ما كان صواباً موافقاً لشريعتنا، ويدعو إلى التقدم بالمعارف من خلال التنظيمات المؤسسة على العدل والحرية، حيث إنهما أصلان في شريعتنا[112]، ويؤكد خير الدين باشا على مبدأ الشورى أساساً في السياسة اقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم، مؤكداً بأن الحضارة الأوروبية لم تكن لتصل إلى ذروتها دون هذا التشارك الديمقراطي.

---

[110] المصدر السابق، ص 249-250.

[111] المصدر السابق، ص 254.

[112] منيمنة، "السياسة: صناعة القوة والحضارة: خير الدين التونسي وكتابه اقوم المسالك"، ص 237- 238. "بتصرف".

المبحث الثاني: موقف خير الدين من نظام الحكم الاستبدادي:

لا بدَّ من تعريف الاستبداد عند الحديث عن خير الدين التونسي، وتوضيح مفهومه بشكل عام، ثم الانتقال إلى توضيحه بوصفه اصطلاحاً سياسياً، فالاستبداد السياسي هو ما أنشد دراسته فيما يأتي وعليه سيكون كلامنا في هذا المبحث موزعاً على مطلبين اثنين:

المطلب الأول: مفهوم الاستبداد:

ذهب علماء اللغة إلى أنّ الاستبداد أصله من الفعل الماضي (استبدَّ) وجذره (بدَدَ): حيث يأتي معناه: استبد الشّخص بأمر، أي تعسف وانفرد به لوحده من أن يشارك به أحدٌ، واستبد به القلق بمعنى استولى عليه القلق، واستبدّ برأيه أي انفرد برأيه ولم يأخذ برأي أحدٍ[113].

ويُعرف الاستبداد في الميدان السياسي، بانفراد الشّخص بالسّلطة والحكم، فقد عرّفه عبد الرّحمن الكواكبي عندما تكلم عن ماهية الاستبداد عند أهل اللّغة والسياسيين، فقال: "الاستبداد، لغة: هو غرور المرء برأيه والأنفة عن قبول النّصيحة، أو الاستقلال في الرأي وفي الحقوق المشتركة، والاستبداد في اصطلاح السّياسيين: هو تصرف فرد أو جمع في حقوق قوم بالمشيئة وبلا خوف تَبِعَة"[114].

"ولتعريف الاستبداد أشكال وتعريفات مختلفة مثال:

- يعرفه المادّيون بأنه الدّاء والدّواء والمقاومة.

---

[113] انظر: عمر، أحمد مختار، **معجم اللغة العربية المعاصرة**، باب الباء، م1، ص 169.

[114] الكواكبي: عبد الرحمن، **طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد**، تحقيق: د. محمد عمارة، (مصر: القاهرة: دار الشروق، ط 2، 2009م)، ص 9 و23.

- والسياسيون: الدّاء استعباد البرية، والدواء استرداد الحرية.

- الحقوقيون: الدّاء تغلب السلطة على الشّرعية، والدواء تغلب الشّرعية على السلطة"[115].

وأستنتج من هنا أن الاستبداد السياسي ما هو إلا استيلاء واستئثار بالسلطة وتفرد بالحكم، واستغلالها بشكل يخدم مصلحة الحاكم. وأنه يدور حول مفهوم التفرد بالسلطة وما يدخل تحتها، سواء أكان هذا التفرد بيد فرد أو بيد جماعة، ولمحاولة المستبد إضفاء القدسية على نفسه لكي يستفرد بالسلطة المطلقة حيث "يقول عبد الرحمن الكواكبي: أنه ما من مستبد إلاّ ويتّخذ لنفسه صفة القدسية، يشارك فيها الله)"[116]، وهذا منتشر في الكثير من البلدان، ولما كانت أمور الدّولة لا تسير ولا يوجد من يصلح أمور النّاس فكان لا بدَّ من شخص يقوم بتسيير أمور الدّولة وإصلاح شأن الأمة، ويتم منح هذا القائد صلاحيات يستند إليها في حكمه دون تعدٍ أو إخلال بها، ولما كان طبع الإنسان يميل ويرغب في التّسلط والاستبداد وتحقيق المنافع الشخصية وما حوله لخدمته، وهذا منشأ المشكلة، وأساس ظهور مفهوم الاستبداد السياسي والانفراد بالسلطة.

---

[115] البيضاني: هناء، **مفهوم الاستبداد في الفكر السياسي الإسلامي الحديث والمعاصر**: دراسة مقارنة، (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ط1، 2012م)، ص43.

[116] الربيعي: صاحب، **سلطة الاستبداد والمجتمع المقهور**، (سوريا: صفحات للدراسات والنشر، ط1، 2007م)، ص27.

فكانت هذه النقطة بداية انتشار الظلم في المجتمعات التي يقودها صاحب الفكر الاستبدادي، فتحول المجتمع إلى مجتمع ظلم واستعباد وقهر، حيث تعددت أشكال الاستبداد والاستعباد وتلونت، وتسمت بأسماء لطيفة توحي بعكس مضمونها[117].

ويرى خير الدين أن الاستبداد هو حكم فردي مطلق دون قيود أو محاسبة، وإن إطلاق أيدي الحكام تجلب الظلم حيث إن النفوس جبلت على ذلك، ويمثل بالدول الأوروبية في العصور الوسطى على الظلم الذي عليهم من قبل حكامهم، والظلم مؤذن بخراب العمران كيفما كان.

وقد تصدى خير الدين باشا للاستبداد من خلال العدل والحرية والأمن والأخذ بالشورى، ونبذ الظلم وعدم إعطاء الملوك الحرية المطلقة في حكمهم، من خلال قوانين وتشريعات تحدُّ من استبدادهم.

المطلب الثاني: موقف خير الدين باشا من نظام الاستبداد بالحُكم:

ازدادت مطامع الدّول الأوربية في تونس، وبدأت تسيطر على مقوماتها تدريجياً، وأخذت بالسيطرة على أسواقها من خلال احتكار التّجارة فيها، والسيطرة على خطوط الاستيراد والتصدير، فلا يمكن الاستيراد والتصدير إلا من خلالها، وضيقت على التجار وقامت بتهميشهم لإجبار التّجار التّونسيين على العمل تحت إمرتهم، مما أدّى إلى تضييق الخناق على العباد والبلاد[118].

---

[117] العمري: أحمد خيري، **القرآن نسخة شخصية**، تنسيق الكتاب: سمر محمد، (د.م: عصير الكتب للنشر والتوزيع، ط1، يناير 2020م)، ص 92- 93."بتصرف".

[118] أمين: أحمد، **زعماء الإصلاح في العصر الحديث**، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، د.ط، 1948م)، ص 149-150.

ومما زاد الأمر أيضاً استبداد الباي وتفرده بالحكم وتسيير مؤسسات الدولة حسب هواه وخدمة مصالحه الشّخصية، ومصالح أعوانه وممن يناصرونه من أفراد الحكومة، وكان يعين من الوزراء من يوافق هواه ومصالحه، ومن لا يوافقه يقوم بتنحيته، فبدأ الفساد ينتشر في البلاد، وتدهورت أوضاع البلاد والعباد[119]، حيث يقول أبو الأسود الدؤلي في ذلك:

لا يَصلُحُ الناسُ فَوضى لا سَراةَ لَهُم وَلا سَراةَ إِذا جُهّالُهُم سادوا

وَالبَيتُ لا يُبتَنى إِلّا لَهُ عَمَدٌ وَلا عِمادَ إِذا لَم تُرسَ أَوتادُ[120]

وبعد أن تولى خير الدين التونسي العديد من المناصب الرفيعة في الدولة، شغل خير الدين التونسي مناصب كثيرة وامتدت لأكثر من خمس سنوات، ففي الوزارة الكبرى فقط بقي أربع سنوات ما بين 1873و 1877م. قام بإحداث تغييرات كثيرة في الموازين السياسية، للسيطرة على الفوضى والفساد، وأظهر خير الدين حنكة سياسية وحسن التصرف وخصوصاً في إدارة الأزمات.

وفي الوقت الذي كان خير الدين التونسي قد بدأ بالترافع في محاكم فرنسا في قضية ابن عياد، وعينه الباي وزيراً للبحرية غيابياً مكافأة له على حسن أدائه وإخلاصه لدولة تونس، ولما رجع إلى تونس سنة 1875م كان الباي محمد الصادق قد أصدر قانون عهد الأمان[121] في تونس، فتحمس خير الدين للمشاركة في صياغة دستور جديد لدولة تونس، فتم تعيينه في اللجنة القائمة على صياغة الدستور، فعمل جاهداً على إدخال مجموعة من النصوص والبنود للقيام بنهضة إصلاحية في

---

[119] المصدر السابق.

[120] القائل: أبو الأسود الدؤلي، ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل الدؤلي الكناني. واضع علم النحو. كان معدوداً من الفقهاء والأعيان والأمراء والشعراء والفرسان والحاضري الجواب، من التابعين. {الزركلي، خير الدين: الأعلام، (بيروت، دار العلم للملايين، ج3، ط7، 1986م) ص236.}

[121] هو القانون الذي صدر عام 1857م والذي أصبح دستوراً لتونس فيما بعد.

تونس ومواجهة الاستبداد والتفرد بالحكم، وأنشأ مجموعة من القوانين تؤيد مبدأ العدالة وترسّخ مفهوم الحريات، وظهر دوره بشكل واضح في حسن صياغة الدستور من الناحية الفكرية والتشريعيّة والتنفيذيّة، وقام بالفصل بين السّلطات الثلاث: التّشريعية والتنفيذية والقضائية، لتقوم كل سلطة بالعمل مستقلّة عن الأخرى دون تدخل أيّ منها في عمل الأخرى[122].

يعدُّ هذا الدستور أول وثيقة مكتوبة في العالم العربي والإسلامي يضبط أمور البلاد وشؤونها السّياسية، على النّمط الأوروبي في صياغة الدساتير ونصها على الحريات، حيث إن خير الدين كان مطلعاً على دساتير الغرب مما جعله قادرا على إدراج جوانب من قوانينها ونصوصها في دستور تونس للنهوض بها والانتقال من مرحلة الاستبداد إلى مرحلة الحرية السياسية والمدنية، وأدخل خير الدين في الدستور الجديد مشروع حق الانتخاب والغرف النيابية وحقوق الأغلبية الموجودة في البلاد، وأكّد على ضرورة إحداث مجلس للشّورى، وحصر مسؤوليات الوزراء بناءً على ما اطّلع عليه في الدول الأوروبيّة، وبهذا الدستور قام بالحدّ من صلاحيات الباي والتخفيف من استبداده وتفرده بالحكم[123].

وأستنتج أن قانون عهد الأمان كان خطوة مهمة في تاريخ تونس، حيث أكّد على الأمان لجميع التونسيين وضمن لهم حقوقهم وواجباتهم والمساواة بينهم، وأصلح القضاء وشجع على العلم والتعلم، وشجع على تطوير الاقتصاد والتجارة وغير ذلك من الإصلاحات.

---

[122] دوحة، "الإصلاحات السياسية والإدارية لخير الدين التونسي في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي وعلاقتها بالحضارة الغربية"، ص 250.

وانظر: المحجوبي، علي: "أثر فكر خير الدين باشا في الحركة الوطنية التونسية"، ص 12.

[123] المنياوي، "**الإصلاح السياسي لدى خير الدين التونسي**"، ص 57 وما بعدها، "بتصرف".

وكان إنشاء مجلس للشورى من ضمن أهدافه التي وضعها، وفعلاً أنشأ مجلساً للشورى وترأسه بالإضافة إلى كونه وزيراً للبحرية، وكانت غايته التشبه بالنمط الأوروبي في حياته السياسية، وأراد أن تكون تونس على غرار الدول الأوروبية لا يستبد بها الحاكم في سلطته دون رقيب أو محاسبة، إنما أراد أن تكون السلطة في البلاد انعكاساً لصوت الشعب وتنفيذاً لطموحاته وتحقيقاً لمصالح البلاد ودفعها نحو النجاح والتطور، وخاصة أن الشورى تقيد الاستبداد في الحكم والسلطة والتفرد بهما في ظل انتشار الفساد والتّدهور السياسي[124].

وأثناء تلك الفترة لم يكن خير الدين يهدف إلى إيجاد مجرد سلطة سياسية تقود المجتمع والدولة، بقدر ما كان همّه إيجاد برنامج وهيكلية وصورة السلطة السياسية التي تقود الدولة، حيث رأى أن ذاك النظام السياسي المستبد بسلطته وسيطرته على مفاصل الدولة كافة زمناً طويلاً، فكان لزاماً أن يتم تقليص دورها وإضعافها، حيث كانت تشكل خطراً على سياسة الحكم في ذلك المجتمع[125]، فباشر بحنكته السياسية ونشاطه وفكره المستنير بإضعاف الدور الاستبدادي وكشف سلبياته ومضاره منذ البداية ووصوله إلى المراكز الحيوية كافة في البلاد، فبدأ تدريجياً بالمساهمة في تغيير هذا النظام.

وبعد وضع الدستور الجديد للبلاد تم إنشاء مجلس نيابي –المجلس الأكبر– والذي يضم حوالي ستين عضواً وتم تعيين خير الدين باشا نائباً لرئيس المجلس الأكبر وقتها لفترة وجيزة، واستلم رئاسة البرلمان سنة 1861م[126]، ليفتح له المجال في محاربة الاستبداد على نطاق واسع، فهذه

---

[124] أبو حمدان، **خير الدين التونسي أبو النهضة التونسية**، ص 33– 34.

[125] المرجع السابق، ص 33. " بتصرف".

[126] جيتين، **خير الدين باشا التونسي من خلال وثائق تونسية وتركية نادرة**، ص 57–58 "بتصرف".

الوظيفة تعد أفضل وأهم وأعظم وظيفة شغلها خير الدين باشا حسب رأي المؤرخ فان كريكن خلال سنوات عمله في المجال السياسي إضافة إلى كونه وزيراً للبحرية[127].

وقد ظهرت لخير الدين باشا عدة مواقف توضح وقوفه في وجه الباي الحاكم عندما أراد تجاوز صلاحياته وفق القانون الجديد، مثل عدم تقبله فكرة إصداره الأمر بقتل أمير الأمراء رشيد[128] وإسماعيل السني[129] دونما محاكمة، فكان دليلاً واضحاً على فكره الرامي إلى فرض القانون على الجميع في الدولة، ودليلاً على تعلقه بإحياء سياسة القانون وأنه فوق الجميع من رأس الهرم إلى قاعه في الدولة[130].

ألاحظ أن خير الدين باشا ومن خلال حنكته وفهمه للواقع في تونس أنه رجل دولة بحق، وأنه يغار على بلاده من السقوط، فكان صاحب كلمته، ولا يبالي بالوقوف في وجه أي كان يخالف القانون، فكانت سيادة القانون عنده فوق الجميع.

---

[127] كريكن: ج س فان، **خير الدين والبلاد التونسي**، ترجمة البشير بن سلامة، "، (تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، 1988م)، ص 87.

[128] هو الجنرال رشيد، مملوك من أصل جورجي، نشأ بدار الوزير سليمان كاهية، تربى بداره صغيراً، ونشأ مع ابنه حمودة باي، التحق الجنرال رشيد بالجيش التونسي النظامي وصار أمير آلاي بعسكر سوسة، وولع بعلم الصناعة الحربية. (إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، أحمد بن أبي الضياف، تحقيق لجنة من وزارة الشؤون الثقافية، تنفيذ الدار العربية للكتاب، مج4، ج8، ص148).

[129] هو أبو الفداء إسماعيل الملقب بإسماعيل السني المعروف عنه تقواه والتزامه بالصلوات والأذكار، من مماليك أبي عبد الله حسين باي، جاءه صغيراً وتربى في داره، وترقى في المناصب. (إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، أحمد بن أبي الضياف، تحقيق لجنة من وزارة الشؤون الثقافية، تنفيذ الدار العربية للكتاب، مج4، ج8، ص151).

[130] الإمام: رشاد، **التفكير الإصلاحي في تونس في القرن التاسع عشر إلى صدور قانون "عهد الأمان"**، (تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، ط1، 2010م)، ص278 و438. "بتصرف".

وما إن بدأ خير الدين باشا بتكريس جهوده وطاقاته الفكرية والجسدية إلى محاربة الاستبداد والفساد، حتى بدأت بينه وبين وزير المالية وقتها مصطفى خزندار حرب ضروس، فخير الدين كان مناهضاً للاستبداد والفساد بكل صوره وأشكاله، وفي الطرف الآخر الوزير مصطفى خزندار رأس الفساد والإفساد في الدولة، لا يهمه شيء سوى تفرده بسلطته واستغلاله لها لمصالحه الشخصية وأهوائه وطموحاته الفردية، حتى انتهى الأمر بخير الدين إلى التخلي عن منصبه ومغادرة البلاد[131]، يقول في مذكراته ما يلي: "أسندت لي وزارة البحرية ورئاسة المجلس الأكبر الاستشاري المحدث لمراقبة المصالح العمومية، وباشرت مهامي لمدة خمس سنوات؛ ولكنني لاحظت أن الباي وخاصة وزيره النافذ مصطفى خزندار، لا يهتمان بهذه الإصلاحات إلا لتقنين سوء تصرفهما تحت غطاء قرارات صادرة عن هذا المجلس. وقد حاولت في الأول بكل الوسائل حملهما إلى طريق الصواب والاستقامة لمصلحة البلاد. ونظراً إلى أن مجهوداتي باءت بالفشل، وبما أنني لا أريد بوجودي في تسيير شؤون البلاد، المساهمة في التلاعب بمصير موطني بالتبني، الذي يدفعونه دون رحمة نحو الإفلاس، قدمت سنة 1279 استقالتي من رئاسة المجلس ومن وزارة البحرية وعدت إلى الحياة العامة".[132]

رغم خروج خير الدين باشا وتركه منصبه ومغادرة تونس إلا أنه لم يقف عند ذلك، بل واصل نضاله ضد مصطفى خزندار وهو في الغربة، حيث وضع نصب عينيه محاربة الفساد والاستبداد بكل صوره، وخصوصاً، بعد لقاءاته المتكررة مع أصحاب الفكر الإصلاحي الأوربيين، فلم يتوقف عن مراقبة وضع تونس السّياسي والاقتصادي ومتابعة منهجه الإصلاحي وحربه ضد خزندار وأعوانه. وقد

---

[131] جيتين، **خير الدين باشا التونسي من خلال وثائق تونسية وتركية نادرة**، ص 59. "بتصرف".

[132] التونسي، **مذكرات خير الدين باشا التونسي**، ص24– 25.

وجد له نصيرًا الجنرال حسين[133] الذي هو خير عون له في مشروعه الإصلاحي للبلاد التونسية منذ بداية عهده، والذي استمر معه في هذا المشروع الإصلاحي رغم مغادرة خير الدين تونس، إلا أنه تعرض للمضايقات من قبل خزندار ومراقبة أمواله ومكاسبه رغم طيب سمعته ونزاهته، حتى اضطر إلى مغادرة تونس أيضاً[134]، ومن هنا بدأت المراسلات بينه وبين خير الدين، والتي شرح فيها الأوضاع في تونس وما وصلت إليه البلاد في تلك الفترة من المؤامرات التي كان خزندار يحيكها ضد مشروعه الإصلاحي، وكان خير الدين يرسل له الإرشادات والتوجيهات لإبقاء مشروعه الإصلاحي قائماً والوقوف في وجه خزندار ومشروعه لنشر الفساد والفوضى في تونس حينئذ [135].

وقد حرص خير الدين على تطبيق القانون بعد عودته إلى تونس، وتأكيده على ضرورة إنشاء مجلس خاص لمحاكمة مصطفى خزندار وأعوانه بخلاف ما جرت عليه العادة في محاكمة الوزراء فأصر على إنشاء ذاك المجلس لمحاكمة ومحاسبة المفسدين[136]، حيث كان الهدف من هذه الخطوة إنشاء الأرضية المناسبة لمحاسبة المفسدين في الدولة مهما كان منتصبه، والحدِّ من استبدادهم وإعادة هيبة الدولة وكيانها وقوتها.

---

[133] الجنرال حسين (1887 – 1828) عسكري وإصلاحي ورجل دولة تونسي من أصل شركسي. من تلاميذ مدرسة باردو الحربية ورفيق خير الدين باشا التونسي ، شغل منصب رئيس بلدية تونس من 1858 إلى 1865 (وهي أول مجلس بلدي تونسي) ثم مدير الشؤون الخارجية للمملكة التونسية سنة 1860. (أعلام تونسيون، الصادق الزمرلي، تقديم وتعريب حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986، ط1، ص 79).

[134] انظر: عبد السلام، **مواقف إصلاحية في تونس قبل الحماية**، ص 12. "بتصرف".

[135] انظر: المرجع السابق، ص 8–10. "بتصرف".

[136] دوحة، **الإصلاحات السياسية والإدارية لخير الدين**، ص 256.

المبحث الثالث: السياسة الشرعية في منظور خير الدين باشا:

السياسة الشّرعية:

"هي تدبير الشئون العامة للدّولة الإسلامية بما يكفل تحقيق المصالح ودفع المضار مما لا يتعدى حدود الشريعة أو أصولها الكلية، وإن لم يتفق وأقوال الأئمة المجتهدين. وبعبارة أخرى هي متابعة السّلف الأول في مراعاة المصالح ومسايرة الحوادث. والمراد بالشّئون العامة للدولة كلّ ما تتطلبه حياتها من نظم، سواء أكانت دستورية أم ماليّة أم تشريعية أم قضائية أم تنفيذية، وسواء أكانت من شئونها الداخليّة أم علاقاتها الخارجية، فتدبير هذه الشئون والنّظر في أسسها ووضع قواعدها بما يتّفق وأصول الشرع هو السياسة الشرعية "[137].

السياسة الشرعية هي الأحكام التي تنظم الدّولة ومرافقها وتدبر شؤون المجتمع، بشرط ألا تتعارض مع مبادئ الشريعة وأحكامها[138]، وإن مبدأ الشورى والرجوع إلى أهل الحل والعقد من أصول الشّريعة.

---

[137] خلاف: عبد الوهاب، **السياسة الشّرعية في الشئون الدستورية والخارجية والمالية**، (د.م: دار القلم، د.ط، 1988م)، ص20.

[138] أحمد: فؤاد عبد المنعم، **السياسة الشرعية وعلاقتها بالتنمية الاقتصادية وتطبيقاتها المعاصرة**، (جدة: البنك الإسلامي للتنمية، المعهد الإسلامي للبحوث والتدريب، سلسلة محاضرات العلماء البارزين رقم 24، ط1، 2001م)، ص 46.

المطلب الأوّل: وجوب الاتّحاد بين رجال الدولة والعلماء:

رأى خير الدّين باشا أنّ السّياسة الشرعية لكي تكون منضبطة بضوابط الشريعة أن يكون هناك تعاون وثيق بين رجال السّياسة وعلماء الشريعة، بشرط تطبيق قاعدة: "مراعاة أحوال الوقت في تنزيل الأحكام"، بحيث يكون هناك انفتاح للشّريعة على المستجدات العصرية، ولا يكون هذا إلا بتعاون السياسيّين مع علماء الشريعة، كل يصوّب للآخر اجتهاده إذا وقع في خطأ، لما فيه منفعة تعود على الأمة والعباد[139].

ومن هنا أستنتج بأن خير الدين باشا أشار إلى إعادة تفعيل دور العلماء في صياغة سياسة الدولة، وقيامهم بدورهم في النّصح والإرشاد لأولي الأمر وواجبهم نحو الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وتقديم النصح والإرشاد للحاكم ووحاشيته في الأمور السياسية والاقتصادية والاجتماعية وكل ما يخدم الدولة.

المطلب الثاني: تقسيم الموظفين في الممالك الإسلامية:

تحدثت سابقاً عن مبدأ الشّورى وأهميّته في النظام الإصلاحي السياسي عند خير الدين باشا، وأنه أحد أهم أعمدة النّظام السياسي، وفي هذا المطلب سنتحدث عن تقسيم مجلس الشورى والوزراء، وصلاحياتهم، وموظفي الدولة ومهامهم.

تم تقسيم المجلس إلى قسمين، قسم يخص أمراء العائلة الملكية، ويدخل بانتخابهم الملك وأعيان الدولة وأنصارها والمؤيدون لنظام الحكم، والمجلس الآخر يسمى مجلس الوكلاء حيث يتم

---

[139] الطويلي، **دراسات ووثائق عن الحركة الإصلاحية بتونس**، ص18.

انتخاب الأعضاء من قبل المواطنين ممن يرون فيهم الكفاءة والجدارة والثقة، لأنهم يقومون بتمثيل المجتمع في السلطة والحديث باسمهم وتحصيل حقوقهم ومراقبة سير أمور الحكومة[140].

وبالنظر إلى تكوين هذين المجلسين يتضح لنا أن أعضاؤها هم من أهل العقد والحل، فإن تم الاتفاق على أمر من الأمور ما لم يكن مخالفاً للأصول المتفق عليها في إدارة وسياسة البلاد، فإنها تصبح شريعة من شرائع الدولة وقانوناً من قوانينها[141].

يقول خير الدين باشا عن هذين المجلسين: "لا يتداخلان في تفاصيل الإدارة، وإنما دأبهما وضع القوانين والمحافظة عليها، ومراقبة أعمال الدولة، وسؤال الوزراء والقدح في سيرتهم خصوصاً مجلس الوكلاء، وعلى الوزراء الجواب عن جميع ذلك"[142].

وعليه فإنّ هذه الرّقابة التي يقوم بها مجلس الوكلاء تحافظ وتراقب سير أمور الدولة، وهي العين الساهرة على تحقيق المصالح للمجتمع، ومراقبة الموظفين لانضباطهم في عملهم الوظيفي وقيامهم بمهامهم على أكمل وجه، ولحماية حقوق المواطنين وضرورة المحافظة على مصالحهم ورعايتها، يقول خير الدين باشا: "فإذا اتفق غالب مجلس الوكلاء على تصويب سياسة الوزراء بعد التأمل في أدلة القادح والمدافع تيسر للوزراء البقاء في الخدمة، وتحصل حينئذ فائدة الدولة والمملكة"، لنعلم من هذا الكلام أن إرادة المواطن وحقوقه مقرونة بحق الدولة ومصالحها فوق الجميع وكافة

---

[140] المنياوي، "**الإصلاح السياسي لدى خير الدين التونسي**"، ص 59- 60.

[141] المصدر السابق، ص 60.

[142] التونسي، **أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**، ص 83.

مسؤولي البلاد[143]. وهذا يدل على أن خير الدين باشا كان من رواد الإصلاح في نظام الحكم في تونس.

ويلي كل من المجلسين السابقين ما يقع على عاتق المسؤولين من مسؤولية يحملونها كل حسب اختصاصه وعمله، بحيث يكونون تحت المراقبة والمساءلة مباشرة من مجلس الوكلاء، والذي لديه السلطة لمعاقبة ومحاكمة المسؤولين حال ظهور أية علامة تدل على الخيانة، وتشديد القوانين عليهم وذلك للمصلحة العامة ولسير أمور الدولة بكل سلاسة وأمانة[144].

وقد استقى خير الدين باشا تسلم الوزراء مهام السلطة التنفيذية بدل حاكم البلاد من الحضارة الأوروبية، مؤكداً بأنها من روح الشريعة الإسلامية والتي كانت السبب في تقدمهم [145].

وقد قام بتقسيم الموظفين في مختلف مؤسسات الدولة إلى ثلاث فرق، كل حسب المنفعة التي تعود على البلاد والعباد، ودورهم في دفع عجلة التطور والتقدم والعمران وحسن الإدارة والولاء لوظائفهم ومراكزهم، حيث يقول: "وبيان ذلك أنَّا نرى المتوظفين في الممالك الإسلامية على ثلاث فِرق الفرقة الأولى: يستحسنون ترتيب التنظيمات استحسانًا صادقًا، ويؤثرون ما تنتجه من الهمة والحرية، وتوفير مصالح الرعية على ما عسى أن يكتسبوه بالاستبداد من المنح الخصوصية، الفرقة الثانية: يجهلون مصالح التّنظيمات، بحيث لا يرون كبير فَرْق بينها وبين السّيرة الاستبدادية، بل يعدونها من بدع آخر الزّمان ويؤثرون عليها البقاء على ما كان، ولا منشأ لذلك إلَّا القصور وعدم الاطلاع على نتائج

---

[143] المرجع السابق، ص83-84. وينظر: المنياوي، "**الإصلاح السياسي لدى خير الدين التونسي**"، ص 59-60.

[144] المنياوي، "**الإصلاح السياسي لدى خير الدين التونسي**"، ص 60- 61.

[145] أحمد زكي: صلاح، **أعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث**، (القاهرة: مركز الحضارة العربية، ط1، 2001م)، ص 34.

التنظيمات في غالب المعمور، الفرقة الثالثة: لا يجهلون مصالح التنظيمات وتوفيرها لخير البلاد والدولة، ولكنهم يؤثرون على ذلك فوائدهم الشخصية التي تتوفر لهم بالاستبداد"[146].

من وجهة نظر الباحث فإن خير الدين وفق في تقسيمه لهذه الفئات، وجعل من الفرقة الأولى هي من ستتولى مهمة إصلاح البلاد وتطورها وتقدمها، والنهوض بالدولة والشعب، حيث يظهر هنا أن هذه الفرقة هدفها الخير للبلاد ورفع الفقر الجهل عن الشعب، وتوفير مصالحهم وتحسين مستوى معيشتهم بكل إخلاص، أما الفرقة الثانية فإنها ليست أهلاً لهذه المهمة إما لجهلها بسبب قلة خبرتها أو قصورها عن أداءها وعدم معرفتها بفوائد هذه التنظيمات، وأما الفرقة الثالثة فإنها ترى أن مصلحتها الشخصية فوق كل شيء، واستغلت مناصبها لمنفعتها ومصالحها الشخصية، ولا تقوم بما يعود بالنفع على الأمة والمجتمع.

المبحث الرابع: الفكر السّياسي لخير الدين والتّنظيمات السّياسية:

ومن خلال بحثي في فكر خير الدين باشا الذي مزج فيه بين الفكر الإسلامي المستمد من الشريعة الإسلامية وبين ما عايشه وعاينه في الدول الغربية خلال زياراته وإقامته فيها، واشتهار منهجه الفكري بنظرية التّنظيمات –وهي نظرية توضح العلاقة بين السياسة والحضارة، وتبحث عن أسباب تقدم الأمم وتأخرها، واقتراح سبل الإصلاح والنهضة والتطور، وإن تقدم أي حضارة يعتمد على دعامتي العدل والحرية– والتي نستطيع من خلالها توضيح هذا المنهج من خلال ثلاثة مطالب رئيسيّة:

---

[146] التونسي، **أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**، ص70.

المطلب الأول: موقفه من الحرية والعدل:

من خلال ما سبق يتّضح رأي خير الدين باشا في الفرق السّياسي الشاسع بين تونس والدول الغربيّة، وقد وضح خير الدين باشا أن كتم الحريات وانعدامها وعدم وجود العدل في الدولة إنما سببها وجود الحاكم المستبد والمتفرد بالسلطة والحكم، وهذا سبب التخلف في النظام السياسي، وقد ربط التقدم والتطور بإصلاح النظام السياسي، من خلال تطبيق العدل والحرية، يقول نقلاً عن أرسطو: "العالم بستان سياجه الدّولة، والدولة سلطان تحيى به السنة، والسنة سياسة يسوسها الملك، والملك نظام يعضده الجند، والجند أعوان يكنفهم المال، والمال رزق تجمعه الرعية، والرّعية عبيد يكنفهم العدل، والعدل مألوف به وقوام العالم"[147].

ويستنتج الباحث من هذا الكلام أن خير الدين باشا من خلال استشهاده به وإثبات كلامه في مقدمة كتابه، يُوضِح أن العدل يبدأ من رأس السّلطة، لأنه أساس إقامة العدل، فلو عدل لعدل كل من دونه، وإن استبد فلا مناص من الاستبداد، وبعدله يتنشر العدل والاستقرار في المجتمع، وبظلمه يتنشر الفساد والظلم.

وقد ضمّن خير الدّين باشا الحريات للشّعب بأشكالها المختلفة طالما أنّها انضبطت وفق ضوابط الشريعة الإسلاميّة، وخاضعة لقوانين الدّولة المُنصفة، وقد قام بتقسيم الحرّيات إلى ثلاثة أقسام: أولها الحرية الشّخصية والتي تؤمن الفرد على نفسه وماله وعرضه والمساواة بين المواطنين في الحقوق والواجبات. والثّانية الحرية السّياسية والتي تمثل المشاركة في نظام الحكم والمشاركة في اختيار الأصلح والأنسب، والمشاركة في وضع القوانين المناسبة والشؤون السياسية للبلاد. والثالثة حرية النشر

---

[147] التونسي، **أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**، ص 33.

والمطبعة، وهي التّرجمة الحرفية للتّعبير الفرنسي والمقصود حرية الكتابة والنشر، وقد قال في شرحها للعامة:[148] "«حرية المطبعة»، وهو أن لا يُمنع أحد منهم أن يكتب ما يظهر له من المصالح في الكتب والجرنالات التي تطلع عليها العامة أو يعرض ذلك على الدّولة والمجالس، ولو تضمن الاعتراض على سيرتها"[149].

قام خير الدين بتقسيم الحريات إلى ثلاثة أقسام ووفق في ذلك، وهذه الحريات هي التي تضمن العيش الكريم للمواطن وتصونه وتؤمن سبل عيشه، وطالما وجدت هذه الحريات فإن الدولة والمجتمع يسيران نحو الأفضل.

المطلب الثاني: موقفه من الاقتباس:

قام خير الدين باشا بوضع أسلوبه السياسي بطريقة مرنة تتيح له الأخذ عن الآخرين، وقد أطلق على هذا المنهج اسم (التنظيمات الدنيويّة)، بحيث يمكن تنظيم سبل الحياة والتقدم والتطور من خلال تلك التنظيمات، عبر الاقتباس من الأمم الأخرى، مهما اختلفت الشّرائع فيها عن الشريعة الإسلامية، والحضارة الأوربية هي أولى من تستحق الاقتباس منها، بسبب تنوع أفكارها ومناهجها السياسية، والتي قد أقيمت على العدل ونشر الحريات[150].

---

[148] المنياوي، "**الإصلاح السياسي لدى خير الدين التونسي**"، ص 62-64. "بتصرف".

[149] التونسي، **أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**، ص 117.

[150] الميلاد: زكي، "خير الدين التونسي ونظرية التنظيمات"، **مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث**، 2015/2/24م، رابط المقال: https://www.mominoun.com/articles/%D8%AE%D9%8A%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%8A%D9%86-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D9%88%D9%86%D8%B3%D9%8A-%D9%88%D9%86%D8%B8%D8%B1%D9%8A%D8%A9-

وقد ذكر الأستاذ جميل منيمنة في مقال له عن أسلوب ومنهج خير الدين باشا في الإصلاح السياسي، وكيف أنه وفّق بين المنظور السياسي الإسلامي وبين الإصلاح السّياسي في الغرب، حيث يقول: "يحدّد خير الدين التّونسي منهجه السّياسي في عدة نقاط يوردها في خطبة كتابه "أقوم المسالك"، وهي تتلخّص في عدة نقاط، ثم يعدد تلك النقاط ويذكر منها الأخذ بالمنهج المقارن: فإن خير الدين لا يقبل التقوقع الحضاري، ولا مجرد تقليد الأمم المتمدّنة، وهو حين يعتمد المنهج المقارن في مجال تحليله للتّسابق العالمي في مجالات التمدّن، يختار المنهج الانتقائي، مشيراً إلى أن الحضارة نفسها تسير إلى العالمية بفضل التّطورات في وسائل الاتصالات والمواصلات"[151].

وبهذا فإن خير الدين باشا قام بتجديد علاقة الفكر الإسلامي الحديث بقضايا التمدن والتطوّر، وفتح لهذه العلاقة باباً للتواصل مع كافة العلوم والمعارف.

المطلب الثالث: في المجالس والوزارات:

وقد قام خير الدين باشا ببيان حالة الملوك بثلاث صور في كتابه أقوم المسالك: فهو إما أن يكون حسن التصرف، ولا يحتاج إلى أية مشورة عالماً بما يفعل، واضعاً مصلحة البلاد والعباد هدفاً له، أو أن يكون عالماً وعارفاً، ولكنّه يضع مصلحته وشهواته أمام كلّ مصلحة عامة، أو أن يكون غير عالم وقليل المعرفة راكضاً خلف شهواته ومصالحه. وقد وضع خير الدين باشا حلولاً مناسبة لكلّ حالة، وذكر بأنّ الحالتين الثانية والثالثة تضيع فيها مصالح البلاد والعباد، في حال تُرك للحاكم حرية

%D8%A7%D9%84%D8%AA%D9%86%D8%B8%D9%8A%D9%85%D8%A7%D8%AA-2527

[151] منيمنة، "السياسة: صناعة القوة والحضارة: خير الدين التونسي وكتابه اقوم المسالك"، ص 235-236." بتصرف".

الانفراد والتصرف في السلطة واستغلالها لمصالحه الشّخصية، كما حصل في تونس وقتها، حين كانت السلطة بيد وزيرها المستبد والمتفرّد بحكمه[152].

لهذا كان لابدّ من إنشاء مجلسين لقيادة الأمة، المجلس الأعلى والذي يتكون من الأمراء من أبناء العائلة المالكة وممن ينتخبونهم من ممثليهم، ومجلس الوكلاء المنتخب من أبناء الوطن، ومن ثم يكون هناك مجلس نيابيّ يتكون من الوزراء والموزعين على وزارة المالية والبحرية والتعليم والتربية والحرف وكافة شؤون البلاد، حيث يكون لهؤلاء حرية التصرّف والتحرّك كلّ ضمن وزارته وضمن صلاحياته المتاحة له للقيام بالإصلاح ورعاية شؤون الدولة بشرط أن تكون تحت أعين مجلس الوكلاء تفادياً لاستغلال السلطة أو التقصير في أداء المهام الموكلة لهم. ويكون تحت هؤلاء الوزراء موظفون موزعون على كافة الدوائر الحكومية ويقومون بتسيير الأمور وفق النظم والقوانين واللوائح الصّادرة من الجهات التي يتبعونها، وبذلك يكون خير الدين باشا قد وضع خطة سياسية متكاملة، عرض فيها النّظم السياسية الأوروبية والتي تقوم على أسس ودعائم عرفت بالتنظيمات، ليمهد الطريق لنقلها إلى تونس وتطبيقها[153].

من خلال بحثي أرى أن منهج خير الدين باشا السياسي كان صالحاً لزمانه لأنه لو طبق وقتها لكانت تونس في مصاف الدول الكبرى ولكن تمت محاربته من قبل الفاسدين في تونس، وحالوا دون نجاح خير الدين في مشروعه النهضوي.

---

[152] التونسي، **أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**، ص 22-23. "بتصرف".

[153] المنياوي، "**الإصلاح السياسي لدى خير الدين التونسي**"، ص 59-61.

الفصل الرابع:

الإصلاح الاجتماعي:

يعدُّ خير الدين باشا من رواد الإصلاح الذين سطّروا أروع الصور فيه، ومن أوائل من برعوا فيه، ورسم خطوات الإصلاح بفكره وعقليته الفذّة، وبحث عن أفضل الطرق لتحقيقه، وأبدع في ذلك حتى غدا إماماً لأغلبية المصلحين الذين جاؤوا من بعده، وساروا على نهجه أو قاموا بتطوير منهجه الإصلاحي بما يتوافق مع بيئتهم وعصرهم، ومنهم من استلهموا الكثير من منهجه وأسلوبه فكانت نقطة انطلاقهم نحو الإصلاح.

بعد أن قام الباحث ببيان مشروعات خير الدّين الإصلاحية في الفصول السّابقة كان لا بدّ من الوقوف على الإصلاح الاجتماعي وما قام به للنّهوض بالمجتمع التونسي نحو التقدّم الحضاري ومواكبة موجات التقدم والتطور، فقد شملت إصلاحاته الاجتماعية كل ما يتّصل بالجوانب الحياتية، فلم يترك جانباً أو مجالاً إلا وتطرّق إليه وقام بتنظيمه وتقنينه.

وسأحاول في هذا الفصل الحديث عن إصلاحاته الاجتماعية ضمن مبحثين أساسيّين، وما يندرج تحتهما من مطالب توضح هذا الجانب الإصلاحي بحول الله وقوته.

المبحث الأول: التنظيمات الاقتصادية:

إن التنظيم الاقتصادي والعمل على تقويته وإصلاحه لا يقل أهمية عن الإصلاح السّياسي والدّيني والتّعليمي. ومن أجل دفع عجلة التطور والتقدم في البلاد لا بدّ أن تسخر الدّولة طاقاتها في تقوية هذا الجانب لتكون في مصاف الدول المتقدمة والمتطورة. فالأمم الرائدة كانت تقوم ببناء الدولة من الدّاخل، وتركز على الجانب الاقتصادي كرافعة قوية، فغناها وثراؤها وتأمين كافة مستلزماتها ومقومات بقائها مرهونة بقوة اقتصادها.

وقد كان الاقتصاد التّونسي اقتصاداً تقليدياً يعتمد على الزّراعة وتربية المواشي وبعض الحرف والصناعات البسيطة التقليدية، ومع التغلغل الأوروبّي في الاقتصاد التّونسي واحتكاره، تمكّن الأوروبّيون من السّيطرة على غالب الإنتاج للزيتون في تونس، كما احتكروا التّجارة الخارجيّة، لذلك تنبه خير الدين باشا إلى هذه القوة والتفت إلى اقتصاد تونس وعمل على تقويته وتنميته وإصلاحه، وإبعاد كل أيادي الفساد عنه[154].

وللحديث عنه نقسم المبحث إلى مطلبين اثنين:

المطلب الأول: الإصلاح الزّراعي:

تعدُّ الزراعة مصدراً اقتصادياً مهماً في كل بلد من بلدان العالم، وتشكل ثروة حقيقية تساهم بصورة قوية في النهوض بالاقتصاد أي دولة، وإن الاهتمام بالزراعة وتغطية الاحتياج المحلي يوفر على الدولة عبء توفيرها من مصادر خارجية، وتساهم في فتح باب لتصدير الفائض منها، مما ينتج عن ذلك بإحداث موارد مالية للدولة لدعم اقتصادها.

---

[154] أمين، **زعماء الإصلاح في العصر الحديث**، ص 149.

فقد أصبحت التجارة بكل صورها ومواردها تحت أيدي التجار الأجانب وتصرفهم، وكانت الموارد الزراعية بكافة أنواعها وأصنافها تحت أيديهم ولا يجوز أن تخرج إلا بموافقتهم، وكانوا يتحكمون بشراء المنتجات الزراعية من المزارعين التّونسيين الذين لا يملكون حرية التصرف بمنتجاتهم إلا بيعها للتّاجر الأجنبي بالسعر الذي يحدده هو، فيقوم التاجر ببيعها بالسعر الذي يريده ويحدده، وكانت الزراعة تعتمد في تونس على الطرق التقليدية البدائية، ولما دخل الأوروبّيون إلى تونس تنبهوا إلى ذلك وقاموا بتطعيم الأشجار وتلقيحها وإدخال بعض التّحسينات عليها، الأمر الذي جعلهم يكسبون أرباحًا طائلة. وباعتبار أنهم كانوا مسيطرين على الأسواق فقد كانت أرباحهم أكثر بكثير من سكان البلاد، وما زاد الأمر سوءاً تسابق الشركات الاحتكارية الفرنسيّة والإيطالية والبريطانية للسيطرة على مقدرات السوق التّونسية ومنتجاتها الزّراعية وعلى رأسها الزّيتون[155].

بعد أن تقلب خير الدين باشا في المناصب إلى أن أصبح وزيراً للبلاد، ورأى ما وصلت إليه تونس من تدهور وتخلف في اقتصادها، وما وصلت إليه أهم دعائم الاقتصاد ألا وهي الزراعة من سوء استغلال وتأخر في أساليبها البدائية البسيطة والتي كانت تعتمد على الجهد اليدوي والجسدي المتعب، وما لحق بالمزارعين والفلاحين من ابتزاز ونهب لمنتجاتهم ومحاصيلهم، واحتكار للشركات الأجنبية لتلك المحاصيل، وليعود ريعها عليهم ويحرم منها أصحابها.

فما كان من خير الدين باشا إلا أن انبرى بحسه الإصلاحي وغيرته الوطنية إلى إصدار عدة قوانين تحد من حرية الأجانب في احتكار التجارة في تونس، وسلك مسلكاً صريحاً مع هذه الشركات المحتكرة، وقام بفسخ مجموعة من العقود التي أبرمتها الحكومة معهم وأبقى على أخرى بحسب طلبات وشروط كل عقد، وعمد إلى سداد الديون التي كانت على تونس ليغلق في وجه هذه الشركات كل باب

---

[155] أمين، **زعماء الإصلاح في العصر الحديث**، ص 150.

تستطيع من خلاله سلب ونهب خيرات البلاد، وقام بتقسيم الأراضي الزراعية إلى مناطق، ووضع عليها أصحاب الأمانة لجمع الضرائب، وقام بالتسهيل على الأهالي بدفع الضريبة إمّا نقداً أو محصولاً، وقام بتنظيم وتسهيل العلاقات بين المزارعين والملاّك والدّولة، وقام بإلغاء الضرائب التي تثقل كاهل الأهالي، وإلغاء استخدام القوة العسكريّة لتحصيل الضرائب، فهدأت النفوس واطمأن الأهالي على أرزاقهم وعاد للحكومة احترامها وهيبتها، ودب النّشاط في الاقتصاد التونسي وتشجع الأهالي وعادوا إلى زراعتهم بكل ثقة بعدما انصرفوا عنها بسبب الاحتكار وقلة فائدتها عليهم[156].

وقام خير الدّين باشا منذ سنة 1869م بتهيئة القاعدة الأساسيّة لإنعاش قطاع الزراعة وإكسابه الحيوية اللازمة لتطوير الاقتصاد التّونسي، فاتخذ التّدابير اللازمة والتي من شأنها إيقاف التدهور الزراعي وتحويل هذا القطاع إلى قطاع حيوي ومنتج، وأصدر أوامره إلى الولاة في كل الولايات بحساب كميات المياه اللازمة لري الأراضي الزراعية، وكذلك مياه الأمطار لتقييم الحالة الزراعية وما يلزمها لتطويرها، وأعفى الأراضي البور من الضرائب بشرط زراعتها بالأشجار المثمرة مثل الزّيتون والنخيل، وكذلك استصلاح الأراضي التابعة للأوقاف لتأجيرها والعمل بها، وعمد إلى إعفاء الإنتاج الزراعي الخاص بالتصدير من الضريبة لمدة خمس سنوات لإنعاش هذا الجانب بهدف دعم الاقتصاد[157].

وتطورت الزراعة بسرعة كبيرة إلى أن وصلت إلى حوالي 700 ألف هكتار سنة 1877، عندما ترك خير الدين باشا الحكم، بعدما كانت لا تتجاوز 60 ألف هكتار قبل تسلّمه للسلطة[158].

---

[156] أمين، **زعماء الإصلاح في العصر الحديث**، ص 168.

[157] جيتين، **خير الدين باشا التونسي من خلال وثائق تونسية وتركية نادرة**، ص 137.

[158] جراي، **خير الدين التونسي وتجربته الإصلاحية في تونس (1822-1877)**، ص 79.

المطلب الثاني: الإصلاح الصناعي:

تعد الصناعة عاملاً مهماً في اقتصاد ونهضة الأمة، فعندما تكون الصناعة متأخرة ومتعمدة على أدوات بدائية بسيطة فلا يمكن أن تتقدم وتنهض، أو تواكب التطور الحضاري لباقي الأمم المتقدمة، أو حتى أن تواجه الثورة الصناعية التي بدأت بالظهور في ذلك الوقت، وكانت تونس شأنها شأن الدول العربية والإسلامية في تلك الحقبة الزّمنية، يعتمد أصحاب المهن والحرف فيها في صناعاتهم على الوسائل القديمة والبدائية، مثل الكير في صناعة الزجاج، والفحم في صهر الحديد، وكانت أيضاً مقتصرة على صناعات بسيطة مثل أدوات الحراثة والمعدات الزراعية والصناعية مثل سكك المحاريث والمطارق والفؤوس وبعض الأواني المنزلية.

كانت الصناعة مهملة شأنها شأن الزراعة كما مرّ معنا سابقاً، وكان همّ أصحاب الصناعة ملء جيوبهم وزيادة أرصدتهم مما يأتي إليهم من تلك الصناعات البسيطة دون أن يقوموا بتطويرها رغم حالة البلاد المرهقة مالياً واقتصادياً، ووقوعها تحت الديون والقروض الأوروبية[159].

وعند وصول خير الدين باشا إلى السلطة ومشاهدته الوضع المزري في تونس كما مرّ معنا سابقاً اتخذ عدة قرارات مهمة في سبيل إصلاح الصناعة وتنظيمها لتحسين أدائها، ووضع ضوابط وشروط لتنظيم كلّ مهنة، ووضع إطار معيّن لكل منها وكيفية أدائها ونظامها الخاص بها، وكيفية إجراء الانتخابات لاختيار رئيس للنقابة ومهامها ومسؤولياتها، وقام أيضاً بإصدار منشور خاص بصناعة النسيج وتنظيمه سنة 1875م، فوقع تنظيم صناعة النسيج تنظيماً دقيقاً من حيث مواصفات ومقاسات وخطوط التفصيل، بالإضافة إلى بيان مسؤولية المعلمين والمساعدين والمتدربين المبتدئين،

---

[159] أبو حمدان، **خير الدين التونسي أبو النهضة التونسية**، ص 18.

كما احتوى المنشور على كافة المُخالفات والعقوبات عليها، كما حازت صناعة الذّهب وصناعة أسلاك الفضة وتحديد أصول الوزن على اهتمام خير الدين باشا، وأصدر قرارات بمنع بيع الذهب خارج الدكان، وبيع السبائك الذهبية القديمة وتطويرها نحو الأحسن[160].

ومن الصعوبات التي واجهت الصّناعة في تونس أنّ الباي وأعوانه استغلوها لمصالحهم الشخصية، وفرضوا ضرائب باهظة أنهكت كاهل السكان، إذ لم تستغل لتطوير الصناعة أو لتنمية قطاع الزراعة ولا حتى لتحسين التجارة، بل كانت مخصصة لتسديد ديونهم، وكانت الفائدة تعود على فئة محددة، وكان "الشّعب يدفع والباي ينفق والمماليك يجمعون المال"، وكانت مهمة جمع هذه الضرائب موكلة إلى مجموعة من الجباة ممن عرفوا بعدم الأمانة، وكانوا يجمعون هذه الأموال بأساليب قذرة، مما أدى إلى تدهور الوضع الاقتصادي للبلاد وعزوف الشعب عن العمل في سبيل تقدم الصناعة وتطورها[161].

لذلك بدأ خير الدين باشا مشروعه في الإصلاح الصناعي بمحاكاة الغرب من خلال وسائل الإنتاج وسبل الصناعة، واستعان بالخبرات الأوربّية لتطوير الصناعة في تونس، واستفاد من خلال أسفاره إلى أوروبّا وخصوصاً فرنسا من الأساليب الحضارية في الصناعة وجمع الخبرات والتقى بطائفة من الخبراء بهدف تطوير الصناعة وتقدمها.[162]

---

[160] جيتين، **خير الدين باشا التونسي من خلال وثائق تونسية وتركية نادرة**، ص 140. "بتصرف".

[161] حادة، **حقوق الإنسان في قانون عهد الأمان**، ص 13و14.

[162] جيتين، **خير الدين باشا التونسي من خلال وثائق تونسية وتركية نادرة**، ص 141. "بتصرف".

وقد ظهر اهتمام خير الدين باشا بالقطاع الصناعي وتطويره وتنظيمه ودفع عجلة الاقتصاد نحو الأمام من خلال تنظيم العلاقات بين أرباب الحرف والهيئات التي تنظم نشاطاتهم وعملهم، بإصدار قانون يضبط فيه حقوق وواجبات العمال والصناعيين وعلاقاتهم فيما بينهم وكيفية تنظيم هذه العلاقات[163].

كان خير الدين باشا يهدف من خلال هذه الخطوات إلى الحفاظ على الصناعات المحلية، حيث حرص على ضبطها بشروط ومواصفات محددة، ومن هذه الصناعات التقليدية صناعة الشاشية وحرفة النقش بمختلف أنواعه وأشكاله، وضبط الموازين والمقادير واستبدل العملة النقدية ناقصة الوزن بالعملة تامّة المقدار "عملة الذب الكاملة"[164].

وعمل خير الدين على تنظيم الشّؤون الجمركيّة، وقد كان من قبله رفعوا الرّسوم الجمركية بشكل كبير، وفتحوا المجال أمام البضائع الخارجية للدّخول إلى السّوق التّونسية، الأمر الذي أثّر بشكل كبير على الصّناعات الوطنية، والتي كانت تشكل عبئاً عليهم ولا يستطيعون تصديرها إلى الخارج بسبب تلك الرسوم العالية. وقد كانت الحكومة قد فتحت المجال أمام الصناعات الخارجية للمنافسة داخل السّوق التونسية، فعمد خير الدين باشا إلى تخفيض الرسوم الجمركية، وكان يهدف من وراء ذلك إلى تشجيع عملية الإنتاج والتصدير إلى الخارج، لإنعاش الاقتصاد وإثراء الحركة الصناعية، وتكثيف الحركة التّجارية، لدعم الاقتصاد.[165].

---

[163] دوحة: عبد القادر، "الاصلاحات الاقتصادية والاجتماعية لخير الدين التونسي في منتصف القرن التاسع عشر وعلاقتها بالحضارة الغربية"، **مجلة المواقف**، جامعة مصطفى اسطمبولي – كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، ع11، ديسمبر 2016م، ص 207.

[164] شيخ: ياسين؛ وبو غرارة: محمد الأمين، **خير الدين التونسي حياته وأطروحاته الإصلاحية**، ص 43.

[165] المرجع السابق، ص 44– 46.

وقد قام خير الدين باشا بحماية الصناعات المحلية وخلق نوع من المنافسة بينها وبين الصناعات الأجنبية التي كانت منتشرة في أسواقها، ولإضعاف الرغبة في تلك المنتجات الأجنبية قام برفع بنسبة الرسوم الجمركية عليها من 03% إلى 08% وتخفيضها بالنسبة للصادرات، وذلك بهدف تقوية المنتجات والمصنوعات المحلية وزيادة المصادر المالية ودعم الاقتصاد التونسي، وقد عرف الاقتصاد جملة من مظاهر الانتعاش [166].

ويستطيع الباحث تلخيص سياسة خير الدين باشا الاقتصادية في تطوير الزراعة والصناعة وحماية المصنوعات المحلية التقليدية، وحماية النقابات المهنية وتشجيع الاستثمارات الاقتصادية، وفتح معامل لاستخراج واستخلاص المعادن، وتوسيع الحركة التجارية، وإعادة تونس إلى قوتها الاقتصادية، بعد أن كان اقتصادها في حالة تدهور، تعبث به طائفة لا تعرف سوى جمع المال، فتحول بتونس واقتصادها من التدهور إلى ذروة الانتعاش والقوة، حتى أصبحت صناعاتها تنافس نظيراتها الأوربّية، ومن هنا نجد أن خير الدين باشا أسّس لحركة إصلاحية لإنعاش الاقتصاد التّونسي، وبدأ يرسم ملامح اقتصاد جديد قائم على المنافسة والنزاهة والحيوية.

ولكن ذلك لا ينفي فشل تجربة خير الدين باشا الإصلاحية، لأنه لم ينجز أي شيء مما دونه في كتابه –أقوم المسالك– من التنظيمات والمفاهيم والنظريات الإصلاحية[167]، وإنما كانت إنجازاته في الإطار العام للوضع في تونس في ظل وجود منافسين أقوياء في الداخل والخارج، تربصوا به، واستمروا في الوقوف ضده وفي وجه منهجه وخطته، فكان رجال البلاط أول من وقف في وجهه

---

[166] جراي، **خير الدين التونسي وتجربته الإصلاحية في تونس (1822–1877)**، ص 80 و81.

[167] الذوادي، زهير: **خصوبة الفشل في تجربة السياسة لخير الدين باشا**، (تونس، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون– بيت الحكمة، 2010م)، ص 190.

وحاربه، وفي مقدمتهم الوزير الأكبر مصطفى خزندار، وزير المالية وقتها، فكان رأس الفساد بلا رقيب ومحاسبة بحكم قرابته من الباي الحاكم ويساعده في ذلك معاونه محمود بن عياد، وإفشال مشروعه الإصلاحي ونجحوا في ذلك واستقال خير الدين من وزارته ومن عمله السياسي، فكانت تجربته الإصلاحية تجربة غنية وثرية، وترك إرثاً إصلاحياً لمن بعده، احتوت فوائد وعبر تهدي إلى فشل هذا المشروع الإصلاحي.

الخاتمة

من خلال تناولي لموضوع هذا البحث والمحطات التي مررت بها وفق الخطّة التي رسمت لأجل ذلك توقفت عند عدة جوانب لشخصية خير الدين باشا وما تميّزت به هذه الشّخصية ودوره الفعّال في الإصلاح الحضاري، وتوصلت إلى نتائج يمكن إجمالها في النقاط الآتية:

1- إن المتتبع لحياة خير الدين باشا وشخصيته يدرك تماماً أنه كان رمزاً من رموز الإصلاح في تونس، وأنّ تجربته الإصلاحية هي من أهم المحاولات الإصلاحية في القرن التاسع عشر، حين كانت تونس تمر بأزمات داخلية وتواجه أخطاراً خارجية لزعزعة أمنها واستقرارها، ورغم التحولات العالميّة الخطيرة والصعوبات التي كانت تمر بها تونس إلا أنّه استطاع تحسين الأوضاع فيها نوعاً ما.

2- يعدُّ خير الدين باشا شخصية واعية بما حولها، مدركة لكافة التطورات في عصرها وما تمر به من تغييرات، فقد ساعدته أسفاره على الاطلاع على أحوال البلاد التي زارها وأقام فيها لفترات من الزمن، هذا فضلاً عن إتقانه لعدة لغات، ما مكنه من سرعة التواصل والاتصال مع الآخرين.

3- تميز خير الدين باشا بأنّه كان مفكراً ورجل دولة، حيث تقلد المناصب السياسية العليا في البلاد، وأهمها منصب الوزير الأكبر، وقد سخر جهده في سبيل تطوير وتقدّم تونس.

4- تأثر خير الدين باشا بالحضارة الغربية وأساليب تطورها وتقدمها، واستعان بهذه الأساليب وسخرها لخدمة بلاده، وساعده في ذلك كثرة أسفاره وإقامته في أوروبا وخصوصاً فرنسا، حيث اطلع على دساتيرها واستفاد مما فيها لخدمة لبلاده.

5- يعدّ كتابه "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك" من أهم الكتب التي ألفت في القرن التاسع عشر، ولاسيما مقدمته التي احتوت على خلاصة فكره الإصلاحي، والذي ما يزال أثره ممتداً حتى وقتنا الحاضر.

6- أسهم في وضع دستور تونس عام 1861م، وشجع عليه، ووقف في وجه الفساد والمفسدين.

7- أسس المدرسة الصادقية ونظم التّعليم في الزيتونة وأنشأ المكتبة العبدلية وشجع على الطباعة والنشر والصحافة ونظم القضاء وأعاد تأهيل جريدة الرائد التونسية.

8- شجع على مبدأ الشورى، ونبذ الاستبداد والمستبدين وحاربهم.

9- قام بإصلاح القطاع الصناعي والزّراعي وشجع على الزراعة والصّناعة، وقام بتخفيض الضرائب على النّخيل والزيتون وشجع على زراعتهما.

التّوصيات:

- أوصي بمزيد مدارسة فكر خير الدين باشا الإصلاحي ونشره على نطاق واسع وإدراجه ضمن مقررات الدراسة في المدارس والجامعات في قطر بما يتناسب وعصرنا الحالي في مجال الإصلاحات على كافة الأصعدة.

- الاهتمام أكثر بالتعريف بخير الدين باشا على وسائل التواصل الاجتماعي والإعلام، وعقد الندوات حوله وكتابة البحوث عنه في مراكز البحوث مثل جامعة قطر ومركز الدوحة وغيرهما.

- تفعيل دور المؤسسات والمراكز المعنية بالإصلاحات بنشر الفكر الإصلاحي لخير الدين التونسي.

- أن تقوم مؤسسات متخصصة بترجمة كل ما كتب عن خير الدين بلغات أخرى إلى اللغة العربية.

- نشر الوعي بالإصلاحات السياسية بين طلبة جامعة قطر في مختلف التخصصات التي تدرس هذه المواضيع، وانتقاء مايوافق منها في عصرنا الحالي للنهوض والتقدم والتطور.

قائمة المصادر والمراجع

المراجع باللغة العربية:

- القرآن الكريم.

أولاً: الكتب:

1. إبراهيم: أنيس؛ ومنتصر: عبد الحليم؛ والصوالحي: عطية؛ وأحمد: محمد خلف الله، **المعجم الوسيط**، (القاهرة: دار الشروق الدولية، ط4، 2004م).

2. ابن حنبل: أحمد بن محمد الشيباني، **المسند**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرون، (د.م: مؤسسة الرسالة، ط1، 1997م).

3. ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد بن محمد، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر (تاريخ ابن خلدون)**، تحقيق: خليل شحادة، (بيروت: دار الفكر، ط2، 1408 هـ/1988م).

4. ابن منظور: محمد بن مكرم، **لسان العرب**، (القاهرة: دار المعارف، 1981م)، وطبعة ثانية: (بيروت: دار صادر، ط3، 1414هـ).

5. أبو حمدان: سمير، **خير الدين التونسي أبو النهضة التونسية**، (بيروت: الشركة العالمية للكتاب– دار الكتاب العالمي، د.ط، 1993م).

6. أحمد زكي: صلاح، **أعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث**، (القاهرة: مركز الحضارة العربية، ط1، 2001م).

7. أحمد: فؤاد عبد المنعم، **السياسة الشرعية وعلاقتها بالتنمية الاقتصادية وتطبيقاتها المعاصرة**، (جدة: البنك الإسلامي للتنمية، المعهد الإسلامي للبحوث والتدريب، سلسلة محاضرات العلماء البارزين رقم 24، ط1، 2001م).

8. الإمام: رشاد، **التفكير الإصلاحي في تونس في القرن التاسع عشر إلى صدور قانون "عهد الأمان"**، (تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، ط1، 2010م).

9. أمين: أحمد، **زعماء الإصلاح في العصر الحديث**، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، د.ط، 1948م).

10. أمين: أحمد، **زعماء الإصلاح في العصر الحديث**، (بيروت: دار الكتاب العربي، د.ط، د.ت).

11. بلمعطي: عبد اللطيف، "نخبوية الإصلاح المغاربي زمن القرن الناسع خير الدين باشا وأحمد النصري أنموذجاً"، **مجلة مدارات تاريخية**، العدد الأول، مركز المدار المعرفي للأبحاث والدراسات، 2019م.

12. بوطيبي: محمد، "المعهد الصادقي ودوره في الإشعاع العلمي والفكري التونسي في مطلع القرن العشرين"، **المجلة الليبية العالمية**، جامعة بنغازي، كلية التربية بالمرج، العدد الرابع عشر، 2018م.

13. البيضاني: هناء، **مفهوم الاستبداد في الفكر السياسي الإسلامي الحديث والمعاصر**: دراسة مقارنة، (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ط1، 2012م).

14. البيومي: محمد رجب، **النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين**، (دمشق:، دار القلم، بيروت: الدار الشامية، ط1، 1995م)، ج1.

15. التونسي: خير الدين باشا، **أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**، تقديم: محمد حداد، (القاهرة: دار الكتاب المصري، بيروت: ودار الكتاب اللبناني، ط1، 2012م).

16. التونسي: خير الدين، **مذكرات خير الدين التونسي**، تحقيق وتعريب: محمد العربي السنوسي، (تونس: وزارة الثقافة والمحافظة على التراث، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون–بيت الحكمة، 2008م).

17. الجابري: محمد عابد، **التعليم في المغرب العربي**، (الدار البيضاء: دار النشر المغربية، 1989م).

18. جيتين: أتيلا، **خير الدين التونسي من خلال وثائق تونسية وتركية نادرة**، ترجمة: الدكتور مصطفى الستيتي، (تونس: وزارة الثقافة والمحافظة على التراث، ط1، 2005م).

19. حبيب: سعد عبد السلام، **الشورى في الإسلام**، (القاهرة: كتب إسلامية– المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، د.ت)، ع189.

20. خلاف: عبد الوهاب، **السياسة الشرعية في الشئون الدستورية والخارجية والمالية**، (د.م: دار القلم، د.ط، 1988م).

21. الخن: مصطفى؛ والبغا: مصطفى؛ والشربجي: علي، **الفقه المنهجي على مذهب الإمام الشافعي رحمه الله تعالى**، (دمشق: دار القلم، ط2، 1992م)، ج5، وج8.

22. الرازي: زين الدين محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي، **مختار الصحاح**، (بيروت: مكتبة لبنان، 1986م).

23. الربيعي: صاحب، **سلطة الاستبداد والمجتمع المقهور**، (سوريا: صفحات للدراسات والنشر، ط1، 2007م).

24. زيادة: معن، **المجتمع المدني في الوطن العربي ودوره في تحقيق الديمقراطية: "المجتمع المدني والدولة في فكر النهضة العربية الحديثة"**، (بيروت، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية، 2001م).

25. الشريف: محمد الهادي، **تاريخ تونس– من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال**، تعريب: محمد الشاوش–محمد عجينة، (تونس: دار سراس للنشر، ط3، 1993م).

26. الطبري: محمد بن جرير، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، (مكة المكرمة، السعودية: دار التربية والتراث، د.ط، د.ت)، ج7.

27. الطويلي: أحمد، **دراسات ووثائق عن الحركة الإصلاحية بتونس**، (تونس: مؤسسة سعيدان للطباعة والنشر، 1992م).

28. عبد السلام: أحمد، **مواقف إصلاحية في تونس قبل الحماية**، (تونس، الشركة التونسية للتوزيع، ط1، 1987م/ 1407هـ).

29. عبد الله: الطاهر، **الحركة الوطنية التونسية: رؤية شعبية قومية جديدة**، (تونس: دار المعارف للطباعة والنشر، تونس، ط2، 1990م).

30. عبده: سمير، **العرب والحضارة العلمية الحديثة**، (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ط1، 1402هـ/1982م).

31. عمر: أحمد مختار عبد الحميد، **معجم اللغة العربية المعاصرة**، (القاهرة: عالم الكتب، ط1، 1429هـ- 2008م)، ج1.

32. العمري: أحمد خيري، **القرآن نسخة شخصية**، تنسيق الكتاب: سمر محمد، (د.م: عصير الكتب للنشر والتوزيع، ط1، يناير 2020م).

33. كريكن: ج س فان، **خير الدين والبلاد التونسي**، ترجمة البشير بن سلامة، "، (تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، 1988م)، ص 87.

34. الكواكبي: عبد الرحمن، **طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد**، تحقيق: د. محمد عمارة، (مصر: القاهرة: دار الشروق، ط 2، 2009م).

35. محفوظ: محمد، **تراجم المؤلفين التونسيين**، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 1982م)، ج2.

36. مؤنس: حسين، **الحضارة: دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها**، (الكويت: منشورات عالم المعرفة 1، 1978م)، ص 13.

37. هلال: نبيل هلال، **الاستبداد ودوره في انحطاط المسلمين**، (دمشق: دار الكتاب العربي، ط2، 2005م).

ثانياً: الدوريات:

38. حجازي: محمود فهمي، "المصطلحات في بداية النهضة العربية الحديثة بين المشرق والمغرب"، **المجمع الجزائري للغة العربية**، الجزائر، 2015م، المجلد الحادي عشر، العدد الثاني والعشرون.

39. دوحة: عبد القادر، "الاصلاحات الاقتصادية والاجتماعية لخير الدين التونسي في منتصف القرن التاسع عشر وعلاقتها بالحضارة الغربية"، **مجلة المواقف**، جامعة مصطفى اسطمبولي – كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، ع11، ديسمبر 2016م.

40. دوحة: عبد القادر، "الإصلاحات الثقافية والعلمية لخير الدين التونسي"، **مجلة الحوار المتوسطي**، الجزائر، العدد الثامن، 2015م، ص89.

41. دوحة: عبد القادر، "الإصلاحات السياسية والإدارية لخير الدين التونسي في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي وعلاقتها بالحضارة الغربية"، **مجلة عصور الجديدة**، جامعة وهران 1 – أحمد بن بلة، العدد الحادي عشر والثاني عشر، 1434– 1435هـ/2013–2014م.

42. زين الدين: إسماعيل محمد، "الآخر نموذج مصري تونسي الطهطاوي وخير الدين"، **مجلة المؤرخ المصري**، جامعة القاهرة – كلية الآداب – قسم التاريخ، العدد الثامن والثلاثون، 2011م.

43. قرني: عزت، "الأُمَّة والوطن والمواطن عند رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي"، عالم الفكر، **المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب**، المجلد التاسع عشر، العدد الرابع، 1989م.

44. مصطفى: نبيل، "جامع الزيتونة وريح التغيير في تونس"، **مجلة العربي**، العدد مئتان وستة وسبعون، نوفمبر 1981م.

45. معيفي: فتحي، "النخبة التونسية وحركة الإصلاح الوطني خلال القرن التاسع عشر"، **المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية**، الجزائر، جامعة جيلالي اليابس سيدي بلعباس، المجلد الحادي عشر، العدد الثاني، ديسمبر 2019م.

46. المنياوي: ثناء عبد الرشيد محمد، "الإصلاح السياسي لدى خير الدين التونسي"، **مجلة كلية الآداب**، جامعة القاهرة، المجلد الحادي والسبعين، الجزء الرابع، 2011م.

47. منيمنة: محمد جميل، "السياسة: صناعة القوة والحضارة: خير الدين التونسي وكتابه أقوم المسالك"، الفكر العربي: **معهد الإنماء العربي**، 1985م، المجلد السادس، العدد التاسع والثلاثون والأربعون.

ثالثاً: رسائل الماجستير:

48. جراي: سارة، **خير الدين التونسي وتجربته الإصلاحية في تونس (1822-1877)**، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر في التاريخ، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، (الجزائر: جامعة العربي بن مهيدي- أم البواقي، 2019م).

49. حادة: حافظ، **حقوق الإنسان في قانون عهد الأمان**، رسالة ماجستير، المعهد الأعلى لأصول الدين، (تونس: جامعة الزيتونة، 1998م).

50. شابي: سهام، **الفكر الإصلاحي لخير التونسي (1225-1307هـ/ 1810-1889م) من خلال كتابه "أقوم المسالك في معرفة أحوال المسالك**، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر

في التاريخ المغربي العربي الحديث والمعاصر، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، (الجزائر: وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة الوادي، 2013-2014م).

51. شيخ: ياسين؛ وبو غرارة: محمد الأمين، **خير الدين التونسي حياته وأطروحاته الإصلاحية**، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر الأكاديمي، تخصص تاريخ الوطن العربي المعاصر، (الجزائر: جامعة محمد بوضياف، المسيلة، 2020-2021م).

52. فرج: سعيد؛ وقداشي: صدام حسين، **المشروع النهضوي في فكر ابن العنابي الجزائري وخير الدين التونسي من خلال كتاب السعي المحمود في نظام الجنود وأقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، (الجزائر: جامعة الدكتور يحيى فارس بالمدية، 2015-2016م).

رابعاً: الندوات:

53. الحداد: محمد، "**لماذا يظل خير الدين معاصراً لنا؟**"، وقائع ندوة: خير الدين التونسي، (تونس: المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون- بيت الحكمة، 2010م).

54. عمران: كمال الصادق، "**علماء الزيتونة ومواقف خير الدين الإصلاحية**"، وقائع ندوة: خير الدين التونسي، (تونس: المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون- بيت الحكمة، 2010م).

55. المحجوبي: علي بن حسين، "**أثر فكر خير الدين باشا في الحركة الوطنية التونسية**"، وقائع ندوة: خير الدين التونسي، (تونس: المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون – بيت الحكمة، 2010م).

خامساً: شبكة الإنترنت:

56. الميلاد: زكي، "خير الدين التونسي ونظرية التنظيمات"، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، 2015/2/24م، رابط المقال:

https://www.mominoun.com/articles/%D8%AE%D9%8A%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%8A%D9%86-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D9%88%D9%86%D8%B3%D9%8A-%D9%88%D9%86%D8%B8%D8%B1%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%AA%D9%86%D8%B8%D9%8A%D9%85%D8%A7%D8%AA-2527